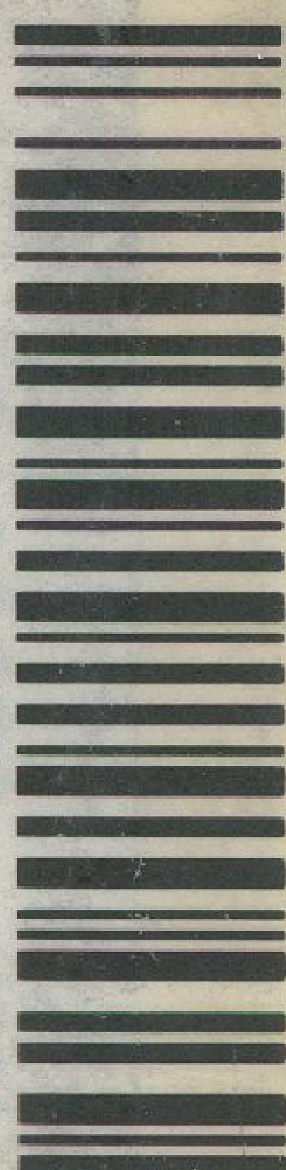
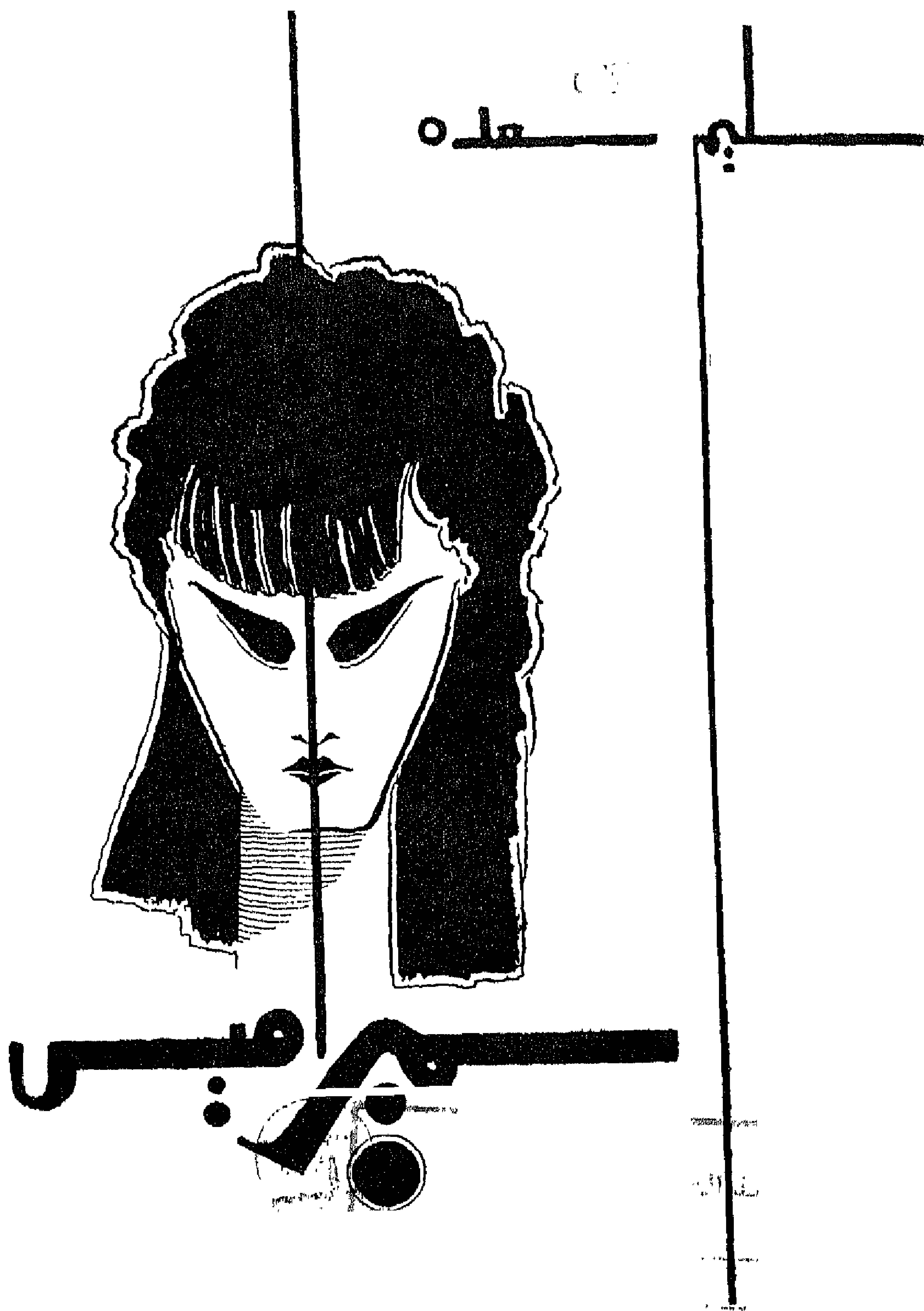


Bibliotheca Alexandrina
0128832



إهداء

الى بنتي سميرة

عند ما تبلغ العشرين

أي بنيتي ! لقد أعجبني منك غضبك علي ، وأنت في السادسة من عمرك ، لأنني أهديت كلا من أخويك كتاباً قبلك ، وهما أصغر منك سناً . فها أنذا أهديك هذه القصة ، وهي قصة ملكة ، فاقرأيها وخذي عنها ماكان سبباً في اسعادها واحذري الأنانية وعواقبها فهي التي أودت بها .

والدك

سليم سعده

مقدمـــة

للاستاذ انطون الجميل بك
رئيس تحرير « الأهرام » الغراء
وعضو مجلس الشيوخ

إذا كان هذا الشرق فى تاريخه القديم قد أنجب رجالا عظاماً لا يزال صدى فعالهم يدوى من خلال الأجيال ، فأنه قد أنجب كذلك طائفة كبيرة من النساء الشهيرات كان لهن أثر بعيد فى تغيير مجرى التاريخ ، بل كثيراً ما كان هذا الأثر أبلغ نفوذاً وأبعد مدى من أثر الرجال .

وإذا كان الجمال سلاح المرأة ، زوّدتها به الطبيعة كما زوّدت الرجل بالقوة وشدة البأس ليتم التوازن بينهما ، فان المرأة إذا جمعت إلى الجمال الفطنة والذكاء ومضاء العزيمة ، ذهب هذا التوازن ورجحت كفتها ، فأقبل المجد يخطب ودّها فتتم لها الغلبة وينعقد على جبهتها تاج النصر .

وما أحفل تاريخ الشرق القديم بمثل أولئك النساء ، أقعدهن جمالهن على عرش القلوب ، ورفعهن ذكاؤهن إلى السيطرة على الأمم والشعوب .

فهذه بلقيس ملكة سبأ .

وهذه كليوباطرة سيدة وادى النيل .

وهذه زينب الزّباء أميرة تدمر .

وهذه سميراميس ملكة أشور ، وصاحبة بابل ونينوى .

لعبت كل منهن دوراً خطيراً فى عهدها ، وكان لها تأثير كبير فى حوادث التاريخ ، حتى لقد قال بسكال « لو كان أنف كليوباطرة أقصر مما كان لتغير وجه العالم »

ولا عجب إذا وجد الكتاب والشعراء مادة خصبة فى حياة مثل هذه الملكات اللواتى أشرقن فى جو التاريخ إشراق الكواكب فى السماء . ولقد نسج الخيال حول كل واحدة منهن حكايات وأقاصيص حتى كان حظها من خيال الأدباء أوفر من نصيبها من حقائق المؤرخين . وإنك لتجد فى اللغات الأجنبية مئات المؤلفات نثراً وشعراً ، تاريخاً وقصصاً ، يدور محورها على أولئك الملكات العظيمات . وليس عندنا من ذلك إلا النزر اليسير ، مع أن هذا الموضوع من تراثنا الأدبى والتاريخى .

ولقد نشط نفر من أدبائنا فى الحقبة الأخيرة الى سد هذا النقص ، فألفوا أو ترجموا . وهذه رواية « سميراميس » التى نقلها إلى العربية الكاتب الأديب الأستاذ سليم سعده حلقة من هذه السلسلة . ولعلها سلسلة متصلة الحلقات فى النشر عن مشاهير الشرق وشهيراته . فيكون لنا من سيرتهم ثروة فى الأدب وعظة فى التاريخ ؟

الطوبه الجميل

المقدمة

. . . وفى ليلة سمعت هاتفاً يقول :

« أجل أنا التى كانت تدعى سميراميس . أنا هذه المرأة التى تحلت بها العصور القديمة كغرة فى جبين الدهر . أنا هذه الملكة التى سحرت آسيا العجيبة بجمالها الفتان . وأذلتها بحلمها وإرادتها . والتى كانت فوق الملوك والكهنة والمقاتلين . وفوق كل مخلوق وغير مخلوق . وكل حقيقى ووهمى . وكل معلوم ومجهول . أنا التى ملكت مفتاح الأسرار وكلمة

الحق ودخائل الكيمياء الالهية . وعرفت سوائل الأثير والقوات التى تدير توازن الكون وتحركه .

« لقد خبرت سير الكواكب وعللت اتجاه النجوم ووقفت على تأثيرها السار والضار على الكائنات فصرت لا أفكر فى غير لذة الخلق والعيش فى سبيل المخلوقات والمثل الأعلى . لقد انتزعت بأرادتى نواة الثمر لأذوق اللباب وحده . وعرفت اختلاجات المادة وحياة الذرات ومآل أصغر الأشياء . وقرأت السر العظيم فى أحشاء الأرض كما يقرأ بنو البشر الآن فى كتاب مفتوح . واستنشقت شذى جميع الأطياب وجنيت جميع الأزهار وعرفت مختلف أنواع الوحوش التى تسكن فى طيات البحار . ووقفت على سر كل حيوان عادم الفقار وأدركت سبب اختلاجات الأرض واضطراباتها فلكل شىء فى الخليقة غايته ومغزاه . وشعرت بأننى واحدة ومع ذلك فأنا متعددة متناثرة الأطراف كأن عالماً بأسره يختلج بين أضلعى ويسرى فى عروقى ودمى .

« لقد وفقت السماء فى أمر مولدى . فأنا ثمرة غرام الالهة دركيتو دسكالون بأحد أبناء البشر ... فأنا، والحالة هذه ، رابطة بين السماء والأرض . ومملكتى كانت تمتد إلى آشور وبابيلونيا وارمينيا وماديا والمقاطعات الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الهندوس .

« ويسرنى كثيراً أنى لم أعمل إلا ما فيه خير شعبى وفى سبيل مملكتى ورقيها وتقدم الانسانية بأسرها . رسولة الآلهة على الأرض فقد كنت بمثابة مبشرة للمستقبل ، على أن ذلك كان فى أحد العصور النائية المتأخرة ولذلك فصوتى لم يسمع وحركاتى كانت لا تفهم دائماً فلا تقدر ... واأسفاه ! لقد اضطررت ، لكى أسيطر على بعض العقول الآسنة والأذهان الراكدة ، أن أستعمل الأرهاب وأبذر الذعر مما كانت تشمئز له نفسى وتزدريه .

« لو أحسن الرجال النظر ! ... ولو أنهم يحسنون القراءة فى دخيلة أنفسهم ! ... لعمرى إن الرأس البشرى لأشبه بعالم صغير يضم كل شىء . وإننى لأقدر أن الفضائل

والرذائل، والخير كالشر، كلها متأصلة فينا. وإنه لتكفى فرصة لتظهر وتتجلى . وهذا ما يدل صراحة على أن خلاصنا وهلاكنا موقوفان على السبيل الذى نسلكه والاتجاه الذى ندفع نحوه مشاعرنا للوصول إلى الغاية المنشودة . . .

« واأسفاه ! إن الشهوة تهمل ما يوحى به العقل فتحول بعنف دون رقى المخ . واليوم الذى يتوصل فيه الانسان إلى أن يكون سيد نفسه فانه ينجو وتستعيد الأرض جنة عدن التى خلقت لأجلها . . .

« ولكن ، قليلون هم أولئك الذين يريدون التسلط على أنفسهم والذين يعرفون استخراج الدرر المخبأة فى أعماق الأسرار ، حتى أنا نفسى ، فأننى بعد أن ضربت مثلا للحكمة والحلم سقطت فى حمأة الشهوة الحمقاء .

« إن الشرائع الأرضية ثابتة لا تتغير . ويجب على الرجل ـ ولكن بعد جهود طويلة مطردة وعمل متواصل مستمر ـ أن ينتزع شيئاً فشيئاً تلك الأسرار الدفينة فى

أعماق الطبيعة ليشعر عقله بوجودها فيها . لقد وقفت على أعمق الأسرار وكان الواجب يقضى على ألا أفشيها لأن أضواءها الساطعة قد تعمى انظار الانسانية : فيما مضى - وقد مرت على ذلك أجيال عدة - كان الرجال يعلمون . ولكن خروجهم على النظم وثورتهم على الشرائع العالمية جرت عليهم عذاباً أليماً رهيباً: هو النسيان التام. فسقطوا فى هوة الجهل السحيقة المدلهمة . ومع ذلك فان الله تعالى فى رحمته يشفق عليهم من وقت لآخر فيبعث اليهم رسولا يحاول أن يهديهم سواء السبيل . لقد كنت رسولا من قبل العلى ، مختارة من المولى القدير . وإذا كان عملى فى سبيل المدنية لم يثمر منذ بدايته ، فليس معنى ذلك أنه غير مجد، لأن مثل هذه التطورات الكبيرة والطفرات العظيمة تتطلب وقتاً طويلا. لقد غرست الأفكار فجنى الخلف ثمارها. فعلى قدر ما تكون عليه الأيدى التى تحرك المنجل من الخبرة والمهارة يصير جنى سنابل الرقى الذهبية هيناً ميسوراً.

« إننى لآسف جد الأسف على القسوة التى دنست بها ملكى مكرهة ، ولكن أفراد رعيتى كانوا لا يذعنون لإرادتى ولا يطيعون أوامرى بغير هذا الشرط . مع أن كلمتى الملتهبة كانت فى بعض الأحيان كافية لإثارة جموعهم ، فكنت أشعر إذ ذاك بلذة جنونية هى خير جزاءلى على جهودى العظيمة .

« وإلى الطبيعة ـ وهى أعظم مجدد للقوة ـ كنت ألجأ دائماً لأسترد نشاطى وأتابع السير فى الطريق التى رسمتها ، لا سيما عند ما كان احتقار الرجال وخياناتهم وسفالتهم تحمل إلى نفسى رغبة الابتعاد عنهم .

« هذا هو السبب فى وجود حدائق المعلقة الشهيرة حيث كنت أميل إلى التنزه فيها وحدى سواء فى نينيف أو فى بابيلونيا ، تشجينى نغمات أوتار خفية وتسحر عينى مختلف أنواع الأشجار والأزهار التى عانيت الأمرين فى سبيل غرسها وإذلالها لعوامل الطبيعة المغايرة لعناصرها ، وعند ما كان زوجى المعبود يغادرنى فى طلب الصيد أو

لخوض غمار الحرب فأنني كنت ألجأ إلى هذا الفردوس الأرضي فهو كل ما كنت أميل اليه فى العالم من بعده .

« حبيبي نينوس . لقد كنت أحبه حباً عميقاً بدون أن يشعر فؤادى أو فكرى بشيء من الملل أو الوهن . وبالرغم من التجارب التى كانت تهاجمنى باستمرار وتستفزنى لأن هذا الحب الطاهر كان متأصلا من نفسى تأصل جذوع السنديان من أعماق الأرض .

« واأسفاه ! لقد كانت الأنانية عيبي العظيم حتى اننى لم أتصور أنه كان فى مقدور أى مخلوق أن يخل بواجبه نحوى أو يعارضنى أو لا يذعن لأوامرى. وهذا العيب، مع ما فيه من الرحمة والخطورة ، كان السبب فى ضياع سعادتى على الأرض ، وإنه مازال حتى اليوم وبعد تعاقب الأجيال يسدل حجاباً قاتماً على نفسى . إن زوجى الكريم قد صفح عنى ومع ذلك فاننى لا أستطيع أن أغتفر هذا الجرم لنفسى .

« على أن الوقت قد أزف لأبدأ بسرد قصة حياتى .

الرؤيا الأولى

لم تجد أمي ـ وهي الآلهة العظيمة ـ ما يعزيها في مصابها الأليم وسقوطها من مكانتها الرفيعة يوم علقت بحب مخلوق بسيط فان . فقضت نحبها بعد وضعي بوقت قليل وخلفتني تحت رعاية سرب من القطا . فكنت أقتات بقطرات اللبن المتجمد التي كانت تحملها إلى بمنقارها. وما كدت أدب على الارض حتى التقطني راع يدعى سيماس . وكان هذا الراعي عرافاً كلدانياً ، لاشك أن أمي ـ وهي

فى مقرها الأخير - قد أرسلته إلى ليرعانى بنصحه ويرشدنى بحكمته . وهى التى قد نفثت فيه روح الشفقة ليربأ بتلك الطفلة اليتيمة المهجورة ويأخذها فى كنفه . لقد رضعت لبان حكمته وتشربت بقوة إرادته لأنه عرف كيف يعجم عودى ويلين عريكتى لرغبته . وكما يفعل الصياد عند ما ينصب شراكه للوحش الذى يطارده فان هذا الشيخ قد نصب جهوده ليزيل من نفسى بذور الشر الخطيرة . وكان متقشفاً وديعاً، وعيناه المكتئبتان كانتا تفيضان بأنوار ساطعة براقة . ولحيته الطويلة البيضاء ، وحركاته البطيئة الهادئة كانت تدعو إلى الاجلال والاحترام إلى حد يقرب من الخوف . كل سحره كان مستكنا فى صوته ؛ ولهجة الأمارة التى تتخلل هذا الصوت كانت تهدأ أمام رنته الهادئة الجذابة التى كانت تسحر أذنى الصغيرة . وكانت نغمة هذا الصوت رقيقة عذبة حتى ليخيل إلى عند سماعها أننى أسمع نغمات أوتار شجية . فكنت أتوق الى سماعها لأطرب بما فيها من رقة وحنان . وهذا ما كان يحملنى ، مع حداثة سنى ، على

كبح جماح نفسى الثائرة الطامحةوإرغامها على إطاعته لأننى كنت أخشى نبرات هذا الصوت إذا ما احتدم وغضب .

وإنى لأذكر جيداً ـ خلال ذكرياتى البعيدة ـ صورة مرشدى وهى تمتزج بصورة خليوس . أما خليوس فانه فتى غض الاهاب يكبرنى قليلا . وهو يملك قطيعاً من الغنم كان يرعاه فى مرج واسع على مقربة من الكهف الذى يظللنى . فكنا نلعب صغيرين فيرعانى بحمايته ويستميل قلبى اليه برقته ووداعته فيطفح وجه الشيخ الوقور بشراً لرؤيتنا ويتنهد مرتاحا مسروراً . وعند ما كان يولد لخليوس حمل جديد ضمن قطيعه فانه كان يزين عنق هذا الحيوان البرىء بأكليل من الزهر يجدله بيديه ثم يحمله الى كأنه غنيمة حرب . فكانت هذه الهبة المتواضعة التى يقدمها إلى هذا الراعى الوديع ألعوبتى الوحيدة التى ألهو بها فى حياة العزلة التى كنت أحياها .

ولا تكاد تزهر وردة أو تنضج ثمرة إلا ويحملها إلى مغتبطاً لأنها كانت أثمن هبة يستطيع أن يقدمها إلى . ولكى

يجنى أول ثمرة من ثمار الطبيعة ،كان خليوس يتجشم الصعاب ويقطع المسافات الشاقة فى الأماكن النائية ثم يؤوب منها وهو منهوك القوى . غير أن أنانيتى الصبيانية كانت تحول دون إدراكى مشقة هذا الأمر لأننى كنت أرى فى ذلك الوقت أنه لمن الطبيعىّ أن أكون موضع رعاية رقيقة كهذه . وكان سيماس يؤنبه بلطف على تبذيره لقواه الضعيفة، ولكن قوة فى الوجود لم تكن لتحول بينه وبين عمله إذا علم أن فيه مسرتى وهناءتى. وكانت ابتسامة الفرح التى ترتسم على شفتى خير جزاء له على جهوده .

لم يعرف أحد أهل خليوس، فكان يرى دائماً وحيدا مهتما بقطيع غنمه . وعندما أصبحت فى حالة تمكننى من ادراك تعاليم سيماس أردت أن أشرك معى هذا الأخ الذى اختارته الطبيعة لى . ولكن جهودى ذهبت سدى لأن روح خليوس ظلت على الفطرة ونفسه ساذجة كنفس الأطفال لا تدرك شيئا ولا ترتاح لغير الطبيعة ولا تميل لغير الحيوانات . وكانت صورتى وحدها تملأ فؤاد هذا

الراعي حتى كان لا يسر لشيء مما يحيط به سواي. وعبثاً حاول سيماس أن يحمله على الاهتمام بحركات الكواكب والأجرام السماوية السامية وأسرار الخليقة ولكنه ظل متمرداً نفوراً

هكذا قضيت سنى طفولتى وشبابى بين شيخ وقور حكيم دائب التفكير ، ورفيق غض الشباب يفيض قلبه حنواً على كما لو أننى كنت حبه الوحيد .

وكان سيماس يتحين الفرص وينتهز الساعات ، التى كان خليوس يهجرنا فيها ليرتاد الجبال والوديان، فيغذى روحى بتعاليمه ويصقل عقلى بحكمه وآرائه . وكثيراً ما كان يقول لى :

— لعمرى إن حظك لسام، فالسماء كانت ترعاك بعنايتها يوم ولدت والآلهة تغمرك بأثمن نعمائها مذ أن ترعرعت. لسوف تحكمين العالم المعروف وتستعبدين الشعوب وتفتتحين البحار وتشيدين المدن ، فتخصب الأرض القاحلة ويطيعك الجنود طاعة عمياء. لسوف تعبدين كما تعبد الآلهة . ومع ذلك ياسميراميس ، إياك والكبر وإفك

الوشاة ، واحذری أن ينساب اليك انسياب الايم ويضريك بالاجرام فيصرفك عن الرشد .فاذا أنت أهملت مايعنيك ونزعت فی قوس تعديك ولم تصغی الی صوت الحكمة الذی یرشدك ويقود خطاك ، ففی هذا اليوم تنزل بك جائحة الأيام ويلوی بك الدهر المبيد فتهلكين .

وكان ينتحب ويتأوه ثم يستطرد حديثه قائلا :

ـــ انظری إلی نجمك فی الأفق كيف يسطع كالشعلة المتأججة . فاذا أنت لم تستمعی لعظاتی، وخالفت الشريعة التی أمليتها عليك ، وأصغيت إلی صوت الكبر والأنانية، ولم تنهی نفسك عن الهوی، وجئت شيئاً منكراً ، وعملت بروح الانتقام ، واستمعت الی من يغريك بما يغرك ، ويضريك بما يضرك، فمعالم هذا النجم لا تلبث أن تضمحل وتنطمس وتبشرك بانقراض مجدك وفناء سلطانك .

وكنا نقيم فی كهف تحيط بنا شتی الحيوانات التی روضها سيماس بألفاظه الساحرة . وكنت قد وقفت منه علی سر إخضاع الكواسر والتسلط علی غريزتها الوحشية .

وكان بين هذه الوحوش فهدة سوداء كنت قد أطلقت عليها اسم « كت سان » . فكنت وأنا طفلة ألاعبها وأداعبها فلا يجسر أحد على الدنو منى إلا ودافعت عنى بوحشية متناهية ... إن للحيوانات غريزة لاتخدعها، فهى تحتقر من يخشاها، وتذعن لمن يسيطر عليها. وكانت كت سان جميلة المنظر ، فلجسمها الطويل الأملس تموجات بطيئة رهيبة تزيده سحراً . وبراثنها الحادة المخيفة البيضاء كانت أشبه بحبات من اللؤلؤ فتؤثر على لونها الأسود وتزيده رهبة وجلالا . وكانت عيناها الذهبيتان تسطعان بوميض وحشى يتطاير منهما كالشرر ولا ينطفىء إلا تحت تأثير نظراتى الحادة الآمرة ويتحول إلى استسلام وحنو وخضوع .

وكانت دائبة السهر علىّ ترعانى بحمايتها وتكلؤنى بعين رعايتها . وكانت تشعر بأننى كنت أفضلها وهذا ماجعلها تسيطر على سواها من الحيوانات المحيطة بنا . فلا يجسر على مداناتى أحد منها إلا إذا أمرتها أن ترحب بها . وكانت لها طريقة خاصة فى الانسياب إلى صدرى والانكماش تحت

قدمي ، وكثيراً ما كان سيماس يداعبنا بنظراته الرقيقة ويهمس في أذني :

ــ لسوف تعرف كيف تدرأ عنك الشر عند ما تدق ساعتي فأغادرك الى دار البقاء .

ثم يضيف بصوت المتنبيء :

ــ نفس العينين ! نفس العينين ! إن لكلتيكما نفس العينين الذهبيتين المستوحشتين تتلألأ فيهما أنوار الحكمة. عينان تدركان، عينان تفهمان ، عينان تريدان ، لقد أذللت كتسان لارادتك : فمن عساه أن يكبح جماحك ياسميراميس ؟

وكان يتنهد تنهداً عميقاً ثم تعود اليه بشاشته وبشره ويقول :

ــ إنني لواثق مما خطته يد القدر على صفحات برجك السماوى . فأنني أرى نجمك يلمع في الافق بشدة كجمرة متأججة . وإني لأضع فيه كل آمالى فلسوف يقود خطاك .

ولقد شغفت ، بفضل أستاذي، بدراسة الكواكب

وبروج السماء. ووقفت على مجرة النجوم ومنازل القمر وتوصلت الى معرفة سيرها ومغزاها وما ترمي اليه . لقد أهمل الانسان منذ ذلك الوقت هذا العلم البديع، وإنه ليجهل الى أي حد هو مرتبط بالحياة وحظ الرجال . ان في جهل الانسان لما سطر في كتاب النجوم السماوية، والوقوف على اختلاجات الكواكب وأسرارها السامية وتطوراتها وأوزانها، لأشد عقاباً أنزله الباري تعالى بالمخلوقات . إن بني البشر لا يعلمون مقدار ما يخسرونه من جراء ابتعادهم عن هذه الاشياء الجليلة .

وكنت أنصت باغتباط الى نغمات العوالم وهي تتسابق في الفضاء متوازية متوازنة لا يسترها غير وشاح من النور . وكثيراً ما كنت أعرض بنفسي الى أشعة سن (القمر الرقيقة، فأشعر بأن لهذه الأشعة نكهة تسكر . وحينئذ يخيل الى أن الارض قد مادت تحت قدمي، وأن المادة التي يتكون منها جسمي قد انفصلت عنه، وأنني ارتفعت الى عالم الأثير العظيم، وأنني قد اندمجت بأرهاط الجن العليا التي تسكن

هذا العالم غير المنظور، وأن هذه الأرهاط وإن كانت محتجبة إلا أنها كانت محتشدة حولنا ساهرة على سير النواميس الثابتة التى تدير نظم الخليقة

كيف أستطيع أن أعبر عن الرهبة الغريبة التى انتابتنى عند ما دوت فى أذنى تلك الأنغام السماوية التى تحدثها الكواكب السيارة فى تنقلاتها وتطوراتها الموزونة؟ وعند ما وقع نظرى على توازن الارض العجيب وسمعت الألحان الشجية التى تثيرها فى دورانها؟ هناك كان النور عبيراً، والعبير جمالا. ولذلك فان ما كنت أشعر به من سمو وذهول لم يكن يترك لى إلا النذر القليل من اللذة للاستمتاع بالأشياء الدنيوية التافهة.

فى ذلك العصر النائى كانوا يعلمون أن «سن» يستضىء من نور شماش (الشمس) وكانوا يعرفون الأسباب التى تحدث الكسوف والخسوف وكروية الارض ومبادرة نقطة الاعتدال. لقد وضعنا طريقة لدراسة الكواكب لاتخطىء، وقد جاء من بعدنا العلماء وألقوا

دلوهم فى بئر هذا العلم العجيب واستقوا من ينابيعه الصافية وسهل على ملوك الكلدانيين دراسة أسرار السماء وخفاياها. فقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم ومناخها الجميل وسماؤها الصافية. لقد كانوا فى سالف أيامهم من رعاة الغنم يقضون الليالى الطوال فى العراء والهواء الطلق فيقتلون الوقت فى مناجاة السماء ومراقبة سير البروج حتى وقفوا على دخائلها وخفاياها وأصبحوا أسياداً لهذا العلم الذى تناقلته الأجيال، ولم يزل على الرغم من تقلبات الدهر وما أصاب الارض من الطوفان والأرزاء مشكاة يهتدى بنورها بنو الانسان.

ولذلك فأننى ما كدت أستقر فى بابيلونيا عاصمة الله حتى شيدت مرصداً فى معبد هائل أصبح فيما بعد مقراً للملوك الكلدانيين. ولكننى لا أريد أن أسبق الحوادث والأنباء...

الرؤيا الثانية

أثقلت السنون والحكمة ظهر سيماس فحنت صعدته تحت عبئها، وشعر بأن ملك الموت يرفرف فوق رأسه ويرقبه عن كثب.

ورأى أن الحكمة تقضى بأن يهجر الكهف الذى كنا نأوى اليه ونزح إلى نينيف عاصمة أشور وكان يقول لى:

— سوف لا تكونين هناك وحدك، فنى مقدورك دائماً أن تلجأى إلى مليكنا نينوس ليرعاك ويدرأ الشر

عنك . ثم انه يجب أن يتم كل شيء ، فهناك يجب أن ينفذ القدر الذى كتب لك .

وكان كلما انتهى من سرد هذه العبر ، وأبدى ما وضح من أفكاره وما استتر ، هدأ خاطره وارتاحت سرائره وطفح وجهه بشرا وحبورا وداعب خدى بيده جذلا مسرورا .

وقد أدهشتنى ألفاظه وروعتنى نبوءته . فقد كان يخيل إلى حتى هذه الآونة أن خليوس من القوة بحيث يستطيع وحده أن يدرأ عنى عوادى الدهر ويقينى شر الأعداء . كان فى ذلك العهد يافعاً فى السابعة عشرة من عمره أهيف القد ضامر الجسم قوى العزيمة يملأ حتى فراغ فؤاده إلى حد كنت أظن ان ذراعيه القويتين العصبيتين كانتا حصناً منيعاً أحتمى به فتتحطم دونه قوة الأعداء .

وأخبرت سيماس بغير مواربة أن خليوس قد كشف لى عن خبيئة نفسه وبث لى لواعج غرامه . وأننا قد تعاهدنا على الحب تحت سماء صافية وكواكب وضاءة ساطعة وبروج وضاحة لامعة . وأننا تعاقدنا ولم يعد يبق أمامنا

إلا أن تتوسل اليه ليبار كنا فتتحد نفسانا برابطة لا يفصم عراها إلا الموت . ولكن سماس كان يجيبنى بكآبة :

ـــ واأسفاه ! إن الراعى لا يشاطرك كل الحظ الذى قدر لك . لقد ظهر فى فجر حياتك ليزيدها جمالا وبهاء، ولكن لا يجب أن يشاطرك حظك حتى النهاية . يجب أن يضحى تلك التضحية السامية ويهب صفاء نفسه وطهره ليشق لك طريق العلياء ويكون بمثابة الدرج الذى تعتلينه فى سبيل الوصول إلى الجوزاء، لسوف يهراق دمه ذبيحة طاهرة فى سبيل مجدك . . .

ولما صحت وأنا أكتم عبراتى :

ـــ أبتاه ! أبتاه ! إن هذا لفظيع . إن هذا لمستحيل، إنه طيب القلب سليم الطوية . ماذا . إذن . هل يكون الله ظالماً ؟ . . .

أهاب بى العراف محتدما :

ـــ صه . أيتها الفتاة العاقة الجاحدة ! لا تحاولى الحكم على ما يأمر به المولى القدير ولا تعللى نفسك بتعديل

ما خطته يد الأقدار فى كتاب الحياة وكتاب الموت . فان ما قدر لا بد أن يكون !

ثم أضاف بصوت خاشع وبلهجته التى تعود أن يتنبأ بها وكانت فرائصى ترتعد عند سماعها :

— احذرى أنانيتك فهى عيبك الوحيد الذى لم أستطع أن أستأصله من نفسك .

ولم يمض طويل وقت على انتقالنا إلى نينيف واقامتنا فى أحد احيائها الفقيرة حتى فاضت روح هذا الشيخ الجليل . وكانت المدينة مشيدة على أكمة عالية وقصر الملك قائم فوق ذروتها . ويلى القصر المعبد فقصور الكهنة وكبار رجال البلاط . ثم تتتابع المساكن على سفحها تبعاً لمكانة أصحابها، وهكذا تتسلسل منحدرة طبقة بعد طبقة . فكان منظر المدينة عن بعد أشبه بأهرام قمته قصر نينوس الساطع بفضل الآجر والطوب الموشى بالذهب الذى شيد منه . فاذا وصل البصر إلى سفح الجبل وامتد إلى السهل المنبسط أمامه ظهرت له مساكن العامة وأكواخ الفقراء

تتضور تحت أشعة الشمس المحرقة حيث تكشر الفاقة عن أنيابها ويرفرف الشقاء بجناحيه على سكانها . ولم يكن لهؤلاء الأشقياء التعساء ما يستمتعون به غير كوكب النهار. فقد كان كل ما ينعم به الخالق على هؤلاء البؤساء .

وكانت المدينة محاطة بسبعة أسوار تحمل ألوان السيارات السبعة . وفوق كل سور عدة أبراج مسطحة محصنة بالمتاريس الشائكة ومحاطة بخنادق عميقة قل أن يتمكن العدو من اجتيازها . وكان السور الأول مكسواً بالذهب . والثانى بالفضة . والثالث مدهوناً بلون النيلة . والرابع بلون البرتقال. والخامس أزرق. والسادس أحمر. والسابع أخضر . وكان يمكن لثلاث عربات قتال أن تسير فوق قمة كل من هذه الأسوار جنباً إلى جنب .

كنت أعيش محاطة بوحوش ، وفى ظل سرب من اليمام الذى كان يتطاير حولى وفوق رأسى فأقضى نهارى فى غزل الصوف أمام كوخى الذى شدناه من الغاب وطمى النهر . وكنت ألاحظ مايظهره جيرانى نحوى من الحقد

والبغضاء وان كانوا لا يجسرون على الدنو منى بفضل حيواناتى المفترسة التى كانت تكتنفنى وجعلت لى من أجسامها المتحركة حصناً منيعاً. وكان خليوس لا يألو جهداً فى سبيل خدمتى ومرضاتى ويحوطنى برعايته ولكنه لم يعد يحاول أن يكلمنى عن موضوع زواجنا كأنه أدرك ما يجول بخاطرى وأننى لن أرضى بتقييد حريتى. وفى الحقيقة كنت لا أفكر فى تشجيعه على هذا الأمر. فنبوءة سيماس كانت تدوى فى أذنى كأنها ناقوس الأموات.

وكنت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرى!

خمسة عشر عاما! إنها لسن جميلة يتفتح فيها القلب كالزهرة للحياة والأمل والسعادة. سن تجهل فيها العذراء شراك المستقبل وتستسلم إلى حظها كما تستسلم الضحية للجلاد.

لم أكن أشعر بأى خوف أو أى ضعف.

كنت أشعر بأن قوة عجيبة خفية تحرسنى وتلهمنى.

وفى ذات مساء بينما كنت أسائل الكواكب بحرارة وشوق عظيمين. شاهدت « تاجليت » كوكبى وقد أخذ

يسطع كالبرق فى سماء الربيع الصافية . وكان وميضه أشد من المعتاد ، فأدركت أن حادثاً خطيراً لا يلبث أن يتم ، وأن نظام حياتى لابد أن يتبدل . فلم يعترنى أى اضطراب أو ذهول فقد كنت أسير فى طريق إلى الأمام وأنا واثقة من قوتى مطمئنة إلى ما قدر لى .

وفى اليوم التالى ، بينما كنت جالسة عند باب الكوخ هادئة أغزل كرة من الصوف وكان خليوس متغيباً منذ بضعة أيام لبيع أغنامه ، إذا برجل ـ جندى من رماة النبال ـ قد وقف عن كثب منى وأخذ يتصفح وجهى بفضول . كان يظهر عليه أنه تخطى الحلقة الرابعة . فقد اختلطت بضعة خيوط فضية بشعره الأسود القاتم ولحيته المتجعدة . ولم تقع انظار حيواناتى عليه حتى كشرت عن أنيابها وضربت الهواء بذيولها وانتصبت كت سان فهدتى وتحفزت وأخذت تحدق فى هذا العابر المجهول بحقد .

والتقت انظارى بأنظار هذا العابر .

ولمحت فى عينيه من القسوة ما لا يقل عما فيهما من الرغبة . وخاطبنى هذا الجندى بشدة :

— أوتخشين الرجال إلى هذا الحد أيتها العذراء المتصلفة فتحتاطين بمثل هؤلاء الانصار المخيفين ؟

فأجبته باحتقار :

— أنا لا أخشى الرجال ولا أرهب صولة أحد . وإننى لا أهاب غير الآلهة .

فأجابنى بحدة وهو يدنو منى بعزيمة صادقة :

— وأنا لا أهاب أحداً . حتى الآلهة !

ولكن كانت كت سان قد قفزت على هذا العابر وأخذت تحصد فخذه بأظافرها وأنيابها فسقط الجندى على الأرض وهو يتخبط ويزأر من شدة الحقد والحنق .

وكنت قد انتصبت على قدمى وبأشارة قاطعة آمرة حملت النمرة على التخلى عن فريستها وأمرت بقية الوحوش بالتزام السكينة .

وكان قد أغمى على الجندى فسحبته إلى داخل الكوخ.
وبفضل البلاسم العجيبة التى علمنى سيماس تركيبها من الأعشاب ، ضمدت جراحه فشفى بسرعة . وقد عنيت بهذا المجهول باخلاص عظيم . فكان خلال نقاهته قليل الكلام، إلا أن عينيه كانتا تقدحان كالجمر وتحدقان فىّ بالحاح غريب لم يرق لى . فقلت له ذلك .

وفى النهاية خرج الرجل عن صمته وقال لى :

ــ عبثاً تحاولين إخضاعى لارادتك . فلسوف تكون ارادتى أصلب من ارادتك أيتها العذراء المتكبرة .

فأجبته بدون ما اهتمام :

ــ هذا ما سوف نراه .

فأضاف وهو يرمينى بنظرات كالشهب يتأجج فيها أوار الشهوة :

ــ لن تمنعى الزهرة المتفتحة من الاتجاه نحو نور الشمس وأشعتها .

ثم استطرد :

— أنت جميلة يا سميراميس . ولسوف تكونين لى . فأنا أريد ذلك !

وبالرغم مما كان ينتابه من الألم الحاد لكل حركة يأتيها فانه اندفع على بوحشية يحاول ضمى إلى صدره . فتجنبته بخفة ورشاقة ورددت فى مخيلتى تلك التعويذة السحرية التى تدرأ الشر عن قائلها فوقف فى مكانه جامداً كالمصعوق وتمتم :

— لقد أتيت أمراً إدًّا . فقد أنقذت حياتى وإنك لتستحقين على ذلك جزاء وشكورا . لسوف تنالين ما تستحقينه من ذلك لأننى لاألبث أن أعود .

ولم ينتظر منى جواباً على تحديه وتركنى. وما هى إلا طرفة عين حتى كان قد توارى وراء المرتفعات والأقذار التى تتخلل طرقات هذا الحى .

ولبثت فى مكانى مفكرة . وكان شعور الاستنتاج عندى حساساً إلى حد عظيم ودرجة متناهية فأدركت أن هذا المجهول سوف يلعب دوراً كبيراً هاماً فى تاريخ حياتى وأننى سوف ألتقى به من جديد .

وانقضت بضعة أسابيع على اختفاء هذا الجندى.

وفى ذات يوم من أيام الربيع وضحت أنواره وصفت سماؤه وأشرقت شمسه كقلب العذراء، تمت الأعجوبة وتمثلت لعينى المسحورتين. وكانت دلايا الياسمين المتفرعة حول مأواى قد أزهرت وفاح أريجها وامتلأ الفضاء بندها وعبيرها. وكان خليوس قد آب من رحلته منذ يومين فأثر وفاؤه لى فى قلبي وزاد فى كآبتى ولم أعد أقدر كيف أستطيع أن أخفف من لواعج يأسه.

وسقط مغزلى على الأرض فلم أنحن لالتقاطه لأننى كنت أشعر بشيء من الخمول يشل أعضائى ويمنعنى عن إتيان أية حركة. وأخذت أرقب بعين شاردة تطورات يمامى التى كانت تتطاير حول رأسى. واستقرت واحدة فوق كتفى وهى التى كنت أميزها عن غيرها إلى حد كانت تتناول طعامها من بين شفتى... وكنت أنتظر. كأن حياتى كانت معلقة... كان يخيل إلى أننى منحنية على شفاهوة سحيقة أنظر إلى أعماقها لأتبين ما فى أسفلها. وكأنى

بارادتى قدامحت وعهدى بها قوية لا تتزعزع . . . كنت أسائل نفسى فى شىء من الذعر عما عساه أن يتم، لأن حاسة التفكير والحذر لم تكن فى ذلك اليوم متيقظة عندى كالمعتاد . كنت عالمة بأنى فى هذه النقطة من حياتى ، ولم أكن مسيرة بارادتى وإنما بيد القدر التى كانت تدير دفة سفينتى .

وبغتة سمعت أصوات أبواق حربية

ووقع نظرى على الرجل الذى كنت أعالجه واقفاً فى وسط عربة حربية يجرها زوج من الجياد الجامحة تتقدمها كتيبة من رماة النبال وحملة المشاعل المضاءة للدلالة على النار المتأججة كما هى العادة المتبعة حتى فى وضح النهار لدى الملوك وكبار رجال الدولة .

وأوقف جياده بباب ملجأى . وقبل أن أتمالك نفسى وأفيق من ذهولى أمر اثنين من رجاله لحملانى بين ذراعيهما ووضعانى بجانبه فى العربة بينما كان بقية رجاله يلاحظون حركات وحوشى ويرغمونها على الوقوف بعيداً هادئة ساكنة .

واندفع خليوس بحدة نحو عربةالجندى ، واستجمع كل ما أوتيهمن قوة فى ساعة اليأس وحاول أن يخنق خاطفى. وسرعان ما طعنههذا الوحش برأس رمحه فى قلبه فسقط خطيبى يعض الرغام مضرجاً بدمائه، وكانت آخر كلمة تلفظ بها قبل موته :

ــ سميراميس . إننى أهواك!

فأخذت أتخبط وأصيح فى العربة أمام خاطفى الذى كان قابضاً على بذراع قوية . وقال لى وهو يرمقنى بنظرة تشف عن الرغبة والشهوة :

ــ أنا فولوك قائد جيوش الملك نينوس . لسوف ترضى أنانيتك أيتها العذراء المستوحشة أن تصبح زوجة الفاتح الظافر المشهور .

فاشتد بى الغيظ وسقطت مغشياً على .

كنت فريسة لهذا الرجل، وكان يجب على أن أستسلم لحظى

وتحركت العربة تتبعها وحوشى ويمامى يرفرف فوق رأسى كأنها هالة تتوجه

وفى اليوم التالى تمت حفلة زواجنا .

غلبت على أمرى وأرغمت على احتمال غرام فولوك العنيف الوحشى . ولكننى لم أستطع أن أعلق به أو أميل بقلبى إليه. فذكرى خطيبى ونهايته المفجعة ونظرته الأخيرة التى ألقاها على وهو يحتضر ، تلك النظرة الممتلئة بلواعج الحب . كل هذه الذكريات كانت ماثلة أمام عينى وتنتابنى فى كل لحظة وتقض مضجعى . كنت أذكر الألفاظ التى تنبأ بها سيماس : ان خليوس هو

الضحية التى اختارها الخالق ودماءه الطاهرة البريئة كانت فداء لما كتب لى على صفحات القدر . . . كنت أرانى وحيدة شاردة الفكر أعيش إلى جانب هـذا الجندى وأنا لا أشعر نحوه إلا ببرود وجفاء وازدراء . ولقد ظلت أبواب قلبى المحصنة مغلقة دون غرامه . وهـذا ما جعل هذا الجندى الباسل الذى صيرته شجاعته قائداً عاماً لجيوش اشور يئن ويتألم . لقد كنت أول حاجز بل الحاجز الوحيد الذى عجز دون تحطيمه وإذلاله لارادته . وعلى الرغم من قسوته ووحشية طباعه فان غرامه لى كان قد ألان عريكته وخفف من حدته . فازدادت كآبته . غير أن نفسه الأبية العالية كانت تخضع لرغباتى وإرادتى . ولقد كان فى مقدورى ـ لو أننى أردت ذلك ـ أن أبدل كثيراً من تلك الطبيعة الوحشية ولـكننى كنت أشعر نحوه بنوع من الازدراء الذى يعترى العذراء الثائرة المرغمة على احتمال وإطاعة سيد ، بينما هى تبحث عن الرجل المميز الذى يختاره فؤادها .

كنت أشعر بأن نفسى مدفوعة إلى رؤية الملك والتقرب منه لفرط ما بلغ سمعى عن شهرته العظيمة. فتوسلت إلى فولوك أن يقدمنى إليه، لأن النساء فى ذلك العصر لم تكن سجينات فى خدورهن كما أصبحن بعد ذلك فى الشرق. فقد كن يلعبن دوراً عظيما له أثره فى الاسرة. وكانت آراؤهن تقدر حق قدرها وحريتهن مطلقة كاملة.

ولما كان زوجى شديد الغيرة فقد حذرنى من الاقتراب من الملك حتى ليخيل إلى أنه كان يخشى المستقبل ويتوقع ما قدر أن يتم.

وكانوا قد صوروا لى الملك بصورة كائن خجول رزين لا يجد لذة فى غير الحروب وصيد السباع. وكانوا يجهلون كل شىء عن دخيلة طبعه وأخلاقه المتكتمة فيعزون كل ما يبدو منه من الحرص والحذر الى صحته المعتلة وجسمه النحيل وحيائه المتناهى. كان يخيل إلى أننى أستطيع، مع قليل من المثابرة وقوة الاقناع وصدق العزيمة، أن أعجن

بيدى طينة هـذه النفس الوادعة وأعجم عود هذا الملك العظيم وأنفث فى نفسه روح الثقة وهى درع الحياة .

وكنت على نقيض ماكانت عليه النساء الأخريات . فقد كن يتمتعن بوافر حريتهن على حين أن زوجى كان ، لفرط غيرته الشديدة ، يحظر علىّ حتى الاتصال بمثيلاتى . فكنت والحالة هذه سجينة فى قصرى أتألم وأحرق الأرّم وأتوق الى الاستمتاع بالحرية واللانهائى بقدر مايستمتع بها وحوش الفلا ، فهى تنمو وتترعرع فى الصحارى الشاسعة بينما هى تضمحل وتحتضر رويداً رويداً إذا هى سجنت فى قفص ولو كان مصنوعاً من الذهب .

قضيت هكذا أربع سنوات الى جانب فولوك وأنا قلقة حزينة لا أجد ما ألهو به أو يحول دون سويداء نفسى إلا دراسة الكواكب وعلوم السحر .

وفى يوم أعلن نينوس الحرب على البكتريانيين . ولم يقو فولوك على مغادرتى، ولكى لا يلفت أنظار جنده إلىّ ، ألبسنى ثياب جندى من رماة النبال وحملنى معه فى

عربته تجرها جياد أسرع من البرق الخاطف .

وكنت جد مغتبطة . فقد وجدت طريقى فى الحياة ونزلت الى ميدان العمل الذى خلقت لأجله . وأصبح من الميسور علىّ أن أظهر مقدرتى وكفاءتى ، فعيش المعسكرات كان يلذ لى لأنه يلائم ماطبعت عليه غريزة الرجولة والأقدام التى كانت متأصلة فى نفسى .

ومر على حصار مدينة بكتر عدةشهور بلا جدوى. وكانت جيوش بكتر تظهر كثيراً من الشجاعة والحمية فى الدفاع عن المدينة وتبدى كثيراً من الحيل لاحباط خططنا فضاعت بذلك جميع جهودنا .

ولم يخف عنى فولوك ما كان يشعر به من القلق . وأطلعنى على ما انتاب نفس الملك نينوس من اليأس وخيبة الأمل . وكانت الأمراض الخبيثة قد تفشت فى جنودنا لخطمتهم وزعزعت عزائمهم وفتكت فيهم فتكا أروع من نبال الأعداء فبدأوا يتذمرون . وشح الزاد فوهنت قوى رجالنا وفقدوا ثقتهم بأنفسهم . وتحرجت

مكانة الملك فأصبح ، لفرط ما طبع عليه من الشهامة والشجاعة ، يفضل الموت على الاعتراف بالهزيمة والفشل . ولم يبق أمام جحافل أشور الشهيرة بانتصاراتها إلا أن تظفر بالعدو وتقهره أو تموت عن آخرها .

وفى ليلة حالكة الظلمة تمكنت من مغادرة خيمة فولوك بدون أن يشعر بى أحد . فألفيت الجند وقد أخذ الجوع منهم كل مأخذ . ممددين على الرغام كأنهم أشباح وليس فيهم من يقوى على تحريك يده . فكنت أسير فى معسكر يرفرف عليه ملاك الموت بجناحيه فيرتعد جسمى فرقا مما تبعثه الى مخيلتى رؤية هذه الأجسام الجامدة من الأفكار المثيرة المؤلمة . وجبت طويلا حول خيمة الملك حتى اهتديت الى فتحة فيها فأخذت أنظر منها الى الداخل فألفيته ساهراً الى جانب مشعل وقد ضم قبضتيه وشرد بصره فى الفضاء المجهول . وكانت تلك أول مرة أرى فيها الملك .

ودهشت من جسمه النحيل وكفيه الصغيرتين وهيئته النبيلة وما يبدو فى عينيه القاتمتين من الكآبة والشجن .

ولم أتمكن من تبيان ملامح وجهه ، ولكننى آنست من نفسى شعوراً غريباً يجتذبنى نحو هذا الملك الهزيل والكائن النحيل الذى نزلت به جائحة الأيام وهو يقبض بيده على أزمة السلطة والحكم ، وأدركت أن قواه تنوء دون تحمل هذا العبء الثقيل، وأنه قد قضى على هذا الملك العظيم أن يدرج اسمه فى سجل المغلوبين .

فى هــــذه اللحظة افترت شفتاه عن ابتسامة حزينة وتمتمت هذه الألفاظ : « لشد ما أتألم ! ليتنى كنت راعياً بسيطاً مجهولا يقود قطيع غنمه . إذن لما قدر لى أن أنوء اليوم تحت أعباء الملك الثقيلة . . . أنا مدرب الشجعان وقاهر الأبطال ومروضها ، أنا الفاتح الذى لم يقهر وكان النصر حليفه دائماً أبدا ، أنا مشيد نينيف وبابيلونيا ، أنا فاتح أرمينيا وماديا وفينيقيا وليديا وبيتينيا ، أنا الذى أمر بصلب الملك فارموس ، ودحر فرعون مصر وأرغم إلهه

عمون على الاعتراف بسلطانى والخضوع لسطوتى وجبروتى ، أنا الذى لعبت حوافر جوادى برؤوس أبطال آسيا وأذل ملوكها وأقيالها ، أنا نينوس ملك أشور وسيد العالم ، أرانى الآن وقد صدنى نفر قليل من الرجال. فوقفوا فى وجهى موقف الندللند وأوقفونى منهم موقف الضعيف العاجز . . . سبعة عشر عاماً تعاقبت على وأنا أخوض غمرات الحروب وأرشف رحيق النصر بلا انقطاع . واليوم ، سوف يمحى أثر هذه الانتصارات فأذوق مرارة الذل والهزيمة . أى مردوخ إله النور وشمس الربيع ، أى نرجال إله الحروب ، هل تخليتما عنى ونبذتمانى ؟ » وأنت ياشماش ، أيتها الشمس الوضاحة ، وأنت ياسن أيها القمر الساطع ، أوتراكما تلمعان لترشقانى بأشعتكما المحرقة ؟ وأنت يامرروداك وأنت يانيبو . أيها الالهان شاربا الدماء وعاشقا المذابح . لماذا خلفتمانى وحيداً وأدرتما لى ظهر المجن ؟ أو يجب أن أزداد شراسة وقسوة ؟ أو يجب أن أخترع ضروباً جديدة من العذاب

والتعذيب ؟ . .. أى اهستار إلهة الجمال والحب ، ألهمينى وسددى خطواتى . أو تشيرين على باستعمال الرفق واللين. أم هو الحلم ماتريدين ؟ تكلمى فأنا طوع أمرك ورهين إشارتك ، حتى لو أمرت بالعفو . ولكننى أريد ، أريد أن أنتصر . . . يا آلهة أشور . أميتينى فالموت خير لى من الحياة إذا قدرت لى الهزيمة والانكسار . »

لم يكد ينته من توسلاته حتى غلت مراجل الرغبة الشريفة فى صدرى وشعرت بأن هذه الروح اليائسة الحائرة تستطيع أن تركن إلى روحى وأن إرادتى سوف تنتصر وتتغلب على تردده ويأسه .

ووطدت عزيمتى على إنقاذ الملك .

ونزحت عن المعسكر بقدم ثابتة وأخذت أجوس حول أسوار بكتر تقودنى غريزة خفية مجهولة . وكانت النجوم تتلألأ فى السماء فشخصت ببصرى إلى نجمى فاذا به يسطع بنور غريب لم آلفه . لم أره قبل ذلك يلمع بمثل هذا البريق . فدهشت وتملكتنى الرهبة الى حد أننى شعرت

باضطراب شديد فقد خيل إلى أن هذا النجم قد تحدى الكواكب والأجرام نخرج عن دائرته المطلقة وأخذ يقترب مني ليلفت أنظاري اليه .

فجثوت على الأرض ضارعة تائهة وأخذت أتمتم :

— أي تاجليت، أي ملهمي ومرشدي وحارسي الالهي وصنوي السماوي ونجمي المقدس وصديقي المخلص الوفي، وشكاة التائه، ومضيء النفوس الشاردة العاثرة، وعزاء المنفي في منفاه، ونبراس الراعي في الفلوات، ومنظم سير الكواكب في كبد السماء ، أي تاجليت، نجمي المحبوب ! أرشدني إلى واجبي واهدني الصراط المستقيم الذي يجب أن أتبعه وإن قادني الى حتفي . مرني فأنني طائعة طيعة !

وكان صدري ينتفض وأنفاسي تتردد بلا توان ولا انقطاع . ومرت أمام نظري كوكبة من النجوم وسمعت هاتفاً يقول بصوت واضح موزون . « يا ابنة الآلهة وثمرة الحب الالهي . أيتها المقاتلة السامية المطلعة على أسرار العلوم وخفايا السحر وجاذبة أجرام السماء إليها .

أى سميراميس ! أيتها اليمامة الرائعة ذات الاسم الجميل الخلاب، إنى أريد أن تضىء شعلة حظك العظيم فى كتاب القدر المفتوح. فاستقى منى شعلة الاقدام والمجازفة. واشربى نيرانى المتقدة نغبة نغبة حتى تمتزج بدمك مدى الحياة، وتفهمى جيداً حقيقة الهالة الساطعة التى تحدثها أشعة أنوارى حول جبينك الوضاح. أيتها المخلوقة الوادعة كونى آمرة وقوية. ويا فتاة الشرائع الصوفية لسوف تنتصرين فاعملى وكونى !

كنت أصغى بورع. ولم ألبث أن انتابتنى حمى الرفعة والسمو. فأخذت أستعيذ بالاشارات الخيالية والموائد السحرية، ثم سرت باحتراس يقودنى شعور غير طبيعى لأن الحراس كانوا مستيقظين فوق الأسوار. واتجهت نحو جزء متخرب من الجدار ...

وما أن انتهيت من البحث والتنقيب فى هذا الركن المظلم حتى نكصت إلى معسكر الاشوريين وأنا أعدو

بسرعة كالطير وبدون ما تردد وذهول ولجت الخيمة الملكية تدفعنى إرادة قدت من الصلب .

وكان الشفق قد بدا فى الأفق كعذراء واجفة .

وكان نينوس لم يزل فى مكانه لم يتحرك ولم يغير جلسته .

ودفعنى جموده إلى مس ذراعه حتى يستشعر بوجودى فنظر إلى حينئذ بغير ما دهشة ولا غضب كما لو أنه كان فى انتظارى . وظل صامتاً طويلا ثم تكلم فى النهاية وخاطبنى بصوت خاشع ولهجة حزينة :

— ماذا تريدين منى ؟

فأجبته بقوة وشدة :

— إننى أريد أن أنقذك أيها الملك .

فبدت على وجهه أمارة اليأس وعاوده الجمود، ولكنه لم يظهر أى تأفف أو جزع .

— ومن أنت ؟

— زوجة فولوك قائد جيوشك

فاستطرد بعد أن تصفحنى بتمعن :

— أنت إذن سميراميس مختارة اليمام ؟

ثم صمت وغمرنى بنظرة عميقة رقيقة قرأت فيها خضوع هذا الفاتح المدهش العجيب . فاضطربت إلى حد لم أستطع معه أن أنطق بحرف واستطرد :

— أنت جميلة يا سميراميس، وإننى لواثق منك . ولكنك قد إعترضت حياتى متأخرة فملكى لا محالة زائل ، وإننى لا شك مقهور ! عما قليل أصبح أسير البكتريين أو أكون فى عداد الأموات ؟

فعاودتنى قوتى وإرادتى لأتكلم :

— أيها الملك ، ما جئت متأخرة بقدر ما تتوهم. لقد أتيت فى الوقت الملائم والساعة الفاصلة . ولسوف أنقذك ! ألا تعلم أننى رسولة العلى ومبعوثة الآلهة وابنة الآلهة دركيتو ؟

— أجل إننى أعرف ذلك .

أجابني بهذه الكلمات وفى عينيه بريق من الحب لامع جذاب وفى صوته نغمة رقيقة عذبة فتملكني اضطراب شديد فأتيت بمجهود كبير لأجيبه :

— غداً ، عند ما تقتصر السماء على إرسال أشعة نجومها الشاحبة على الخليقة الهادئة، وعندما تسدل الظلمة ستارها الكثيف على الرجال والأشياء ، سأعود إليك وأقودك إلى المكان الذى يتسنى لك تنفيذ خطتك الحربية منه . الوداع وإلى الملتقى فى الغد القريب .

— كلا. إبق .

وتقدم خطوة نحوى فاتحاً ذراعيه

فمددت يدى نحوه وأوقفته فى اندفاعه واختفيت وأنا أصيح :

— إلى الغد !

الرؤيا الرابعة

وقضيت طوال اليوم التالى فى الصلاة .

وما كنت أضرع وأبتهل فى صلاتى إلى نيبو الخبيث إلـه الشر ولا إلى نرجال الوحشى حامى غمرات الحروب ولا إلى شماش إلهة النور حتى ولا إلى إهستار إلهـة الحب والجمال . فان سيماس الذى كان رائدى وصاقل عقلى كان قد هدانى إلى عبادة الاله الأحد. الالـه الخالق ، الاله الرحيم الحليم ، الاله الفرد الذى اهتدى إليـه

العبرانيون دون سواهم من شعوب الشرق وعبدوه منذ عهد بطارقتهم العظماء .

وكنت أؤدى فروض الابتهال المقدسة بحرارة شديدة وإيمان قوى. فلم أكد أتمها حتى تسرب إلى نفسى شعور من الاقدام والقوة لم أعهده من قبل. ولكننى كنت فى حاجة إليه لتأدية المهمة التى أناطتها بى السماء

وانبسطت ظلمة الليل الكثيفة المدلهمة على الأشياء.

وانسبت مرة أخرى إلى داخل الخيمة الملكية دون أن يشعر بى أحد . وما أن تبين نينوس من لمحات ناظرى ما يخامر خاطرى حتى تبعنى بلا تردد.

فسرنا خلال المعسكر المظلم لا نسمع إلا نسمات الريح تضرب الخيام فتحدث أنيناً أشبه بأنين الجريح وتختلط بأنفاس الجنود الراقدين على الثرى وصهيل الجياد الهزيلة . وكنت أقود الملك من ذراعه لا ننبس ببنت شفة إذ كان علينا أن نلزم الصمت ونحاذر إحداث أى صوت كما كان يجب أن نكتم أنفاسنا خشية أن تفلت

من صدرنا زفرة أو تتصاعد منه أنة أو حسرة . وسقط خنجر كان معلقاً إلى جانب شجرة على درع ملقاة على الأرض فأحدث رنة فمالت أعناق بعض الجنود نحو الصوت ولكنهم لم يميزونا . وتابعنا سيرنا بلا تردد . . . وكان الملك يشعر بيدى الندية الناعمة فوق يده الملتهبة وكأنه كان يطمئن إلى وجودى بجانبه إلا أننى كنت أشعر بجسمه يهتز ويختلج كلما ضغطت يدى على يده أو حاولت أن تتركها . . .

واصطدمنا فى طريقنا بعربة لم نتبينها فسقطنا معاً ثم وقفنا مشدوهين لشدة ما لحق بنا .

أترانا ندرك غايتنا ونصل إلى محط السر الذى كنا نتصداه فى وسط هذه الجحافل المنبطحة على الأرض وقد أنهكها التعب وأهلكها السغب ؟

كنا نسير إلى الأمام لا نلوى على أحد . وبغتة وقفت وتمتمت :

— هنا .

وحملت الملك على الجثو إلى جانبى على الثرى وجعلته يلمس بيديه هوة كبيرة فى الحائط . كانت هذه الهوة مهملة لا أحد بجانبها ولا بالقرب منها لحراستها . ياللأعجوبة العظيمة ! لقد لها المحاصرون عن هذه النقطة وأهملوا حراستها وغفلوا عنها كأنها لم تكن . وبقفزة رائعة جميلة وقفت على قدمى وانتصب الملك بجانبى.

وفى كبد السماء كان نجمى تاجليت يتأجج فى وسط الكواكب والأجرام ويسطع كالشمس فى وضح النهار، فأوقف المرأة الجميلة الرائعة فى وجه القائد العظيم والعاشقة المفتونة فى وجه عاشقها الكريم.

فتناظرت عيوننا فى وسط الظلام والتقت أنظارنا وبالرغم من رهبة هذا المكان النائى وخطورته اندفع كل منا نحو الآخر بقوة هى أشبه بتلك القوة العظيمة التى تدفع الكواكب فى وسط الأثير والتحمت شفاهنا.

وتمتم نينوس :

« لسوف تصبحين ملكة يا سميراميس »

وكان لا بد، قبل كل شيء، من اثارة الهمم وايقاظ روح القتال فى هؤلاء الجنود، فقد فارقتهم حميتهم وزالت عنهم نخوتهم وشجاعتهم وثبطت عزيمتهم مذ خاب رجاؤهم فى الأسـلاب التى عللوا أنفسهم باكتسابها والغنائم التى هبوا لمقاتلة الأعـداء فى سبيل اقتنائها. وزالت ثقتهم برؤسائهم وضعف ايمانهم بقائدهم ومليكهم وخمدت نيران الحماسة التى كان نينوس قد أودعها صدورهم ... ايه !

أيتها الحمية ! يا لك من كلمة جميلة سامية . أدق من الحب وأرق من النسيم سداك الوهم الكاذب ولحمتك الأمل الخداع . تحركك فى ثنايا الضلوع لفظة وتطفىء جذوتك كلمة . فأنت أقل ثباتاً من الريشة فى مهب الرياح .

وفى اليوم التالى لتلك الليلة التى تجلت فيها النبوءة ارتديت لباس قائد لفرقة رماة النبال وسرت وإلى جانبى الملك وسارت أمامى فهدتى وحلقت طيورى حول رأسى كالهالة وأخذت أجول بين الجند أثير عزيمتهم وانفض عنهم غبار الخمول وأحرضهم على القتال :

ـ ياجنود نينوس . ويا أيتها الأيادى الظافرة والسيوف الماضية القاطعة والسهام الخفيفة المارقة والنبال الصائبة الفاتكة . . . يا أبطال بابيلونيا وماديا وأرمينيا وفينيقيا وليديا وبيتينيا ومصر ويا نبال أشور . هبوا جميعا من سباتكم وانفضوا عنكم غبار الخمول الذى يدنس شرفكم واستمعوا إلى صوت نرجال الذى يخاطبكم بلسانى . ارفعوا السيوف عالية واشمخوا بأنوفكم نحو السماء .

فلئن وثقتم بقولى وأصغيتم إلى صوتى فسوف أقودكم إلى النصر المبين وغداً تصبح بكتر فى قبضة يدكم . غداً تصبح نساؤها وذهبها بين غنائمكم وأسلابكم . . . يارماة النبال والفرسان وقواد المركبات وحملة المزاريق والمقاليع . أيها الأبطال العتاة . هلا أطعتم مليككم ؟

فعلا الضجيج فى جميع أنحاء المعسكر واشتد اللغب . وأخذ الجنود يحدقون فىّ بأبصارهم بدهشة يملأها الاعجاب. وكانت عيناى ترشقهم بسهام إرادتى النافذة كما يفعل الصقر عند ما يحدق نظره فى فريسته .

وتكلم الملك بدوره :

— إننى أوصيكم باطاعة قائدكم الجديد . ولسوف أطيعه بنفسى . فليأمر .

وانحنى الملك أمامى كما يفعل الخاضع ، ووضع يده اليمنى على قلبه ثم رفعها إلى جبينه علامة التسليم .

حينئذ حدث أمر مدهش غريب بل أعجوبة حقيقية . فجميع هؤلاء الرجال الذين كانوا منذ لحظات قليلة

يتضورون من وطأة الجوع والذين فارقتهم شجاعتهم بعد أن تزعزع ايمانهم . جميع هؤلاء الرجال الذين شحبت وجناتهم وغارت عيونهم فى حدقاتها من وطأة المرض وجف جلدهم من تقلبات الجو وخارت عزائمهم من تأثير فشلهم وهزيمتهم ، جميع هؤلاء الرجال الذين لم يعد يؤثر فيهم صوت زعيمهم ، قد هبوا فى تلك اللحظة على أقدامهم وأخذوا يحركون أيديهم، ولمعت المزاريق والحراب تحت أشعة الشمس فأصبح منظرها أشبه بنهر من الفضة ، ووضعت النبال فى الأقواس وأحاط الفرسان بجيادهم ومركباتهم كما لو كانوا يستعدون للهجوم والقتال . فأيقنت أن الثقة والحياة قد دبتا من جديد فى هذا المعسكر ، بعد أن كان منذ لحظة ساكناً هادئاً موحشاً كالقبر .

وتعالى الصياح من جميع أرجاء المعسكر فأدركت أننى قد ملكت ناصية الجند وأن حميتهم ونخوتهم قد عاودتهم !

مرت بى ساعة إلهية سامية. وشعرت باضطراب غريب لم أعهده يستولى على نفسى ويتسلط عليها كما تتسلط

الشمس على الأرض إذا ما بزغ نور الشفق . فأغمضت عيني لأستمتع بنشوة انتصاري وأدركت فجأة أنني خلقت لكي آمر ولكي أطاع . وتصورت حظي مرسوماً بوضوح عند فجر حياتي فقبلت ما قدر لي بلا قلق ولا تردد ورضيت به كاملا كما كان يبدو لي . وأقسمت لنفسي أن أستمر في تأدية مهمتي ولو قدر لي أن ألقى حتفي في النهاية . ثم أخذت أثوب إلى رشدي رويداً رويداً .. وعدت بعقلي إلى الحقائق الدنيوية فشعرت بنظرات الملك الحارة تغمرني و تلتهمني فقد كانت عيناه تشعان بنيران الحب وتسطعان كالجمر .

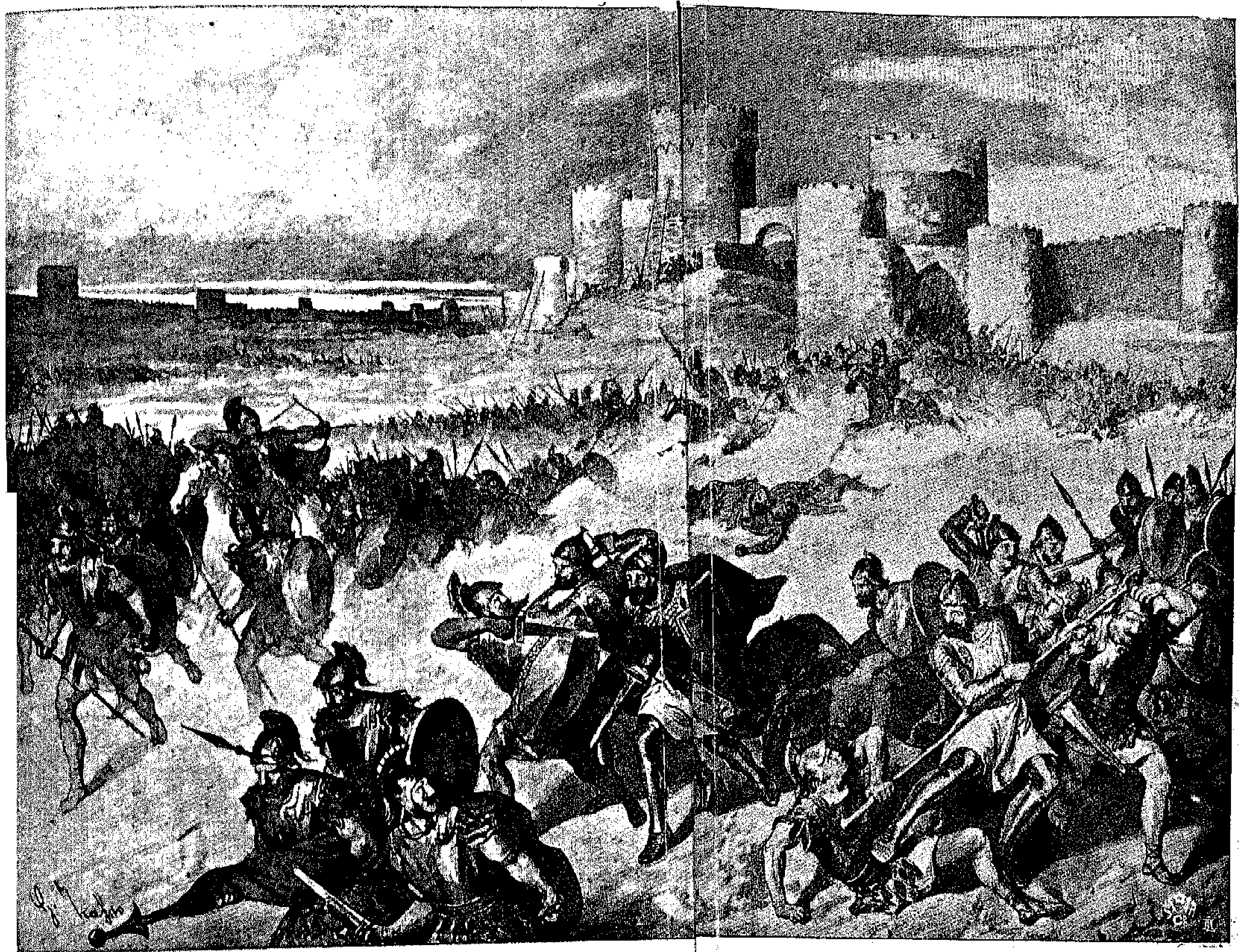
فصحت :

— أيها الجنود الظافرون ، إنني أطلب منكم مجهوداً آخر وهو الأخير. في هذا المساء عندما تسدل الظلمات ستارها الخفي عليكم ، وعند ما تهدأ الحركة ويخلد العدو إلى السكون ويستسلم جنوده إلى سنة الكرى أسير في طليعتكم فتتبعوني في سكون عميق ، ولكن حذار أن تبدو

منكم حركة أو تسمع لكم جلبة أو تحدث سيوفكم قعقعة . إنني أعرف ركناً مهجوراً فى جدران المدينة يمكن الولوج منه إلى بكتر ومباغتة المحاصرين على غرة . لسوف تذبحون الحامية ذبح الأغنام وتعملون السيف فى السكان حتى تسيل الدماء كالأنهار . فالحلم كلمة تافهة لا تنطبق على الأعداء . وغداً عند ما يبدو الشفق فى الأفق تكون مهمتكم الدامية قد انتهت . غداً عند ما تزينون أسوار بكتر وجدرانها بجلود سكانها وجنودها تفتح أبواب المدينة لتدخل المركبات وستكون مركبة الملك مجهزة فى الطليعة فيعتليها ويتقدم فى المدينة تقدم الفاتح الظافر . فلتنقش كل كلمة من كلماتى على صفحات أذهانكم، ولتنتعش أفئدتكم ، فنرجال إله الحرب وسلطان المعارك الدامية وسيد الجرأة ومولى القسوة والوحشية يلازمكم ولا يتخلى عنكم . فأنتم أذرعه وهو روحكم. فاحذروا أن تظهروا أمامه بمظهر الضعف أو الوهن ولتضرب الأمثال بأعمالكم الباهرة العظيمة على مر الاجيال .

تشجعوا يا أبطال نينيف فقلوبكم قد قدت من الحديد، فاذا كنت أحذركم اليوم من الخطر المحدق بكم فلكى أتداركه وأقهره. فاعلموا جيداً أن سميراميس لن تذل ولن تقهر .

وشعرت بعيون هؤلاء الأبطال محدقة بى بحدة فأدركت أن أرواحهم أصبحت فى قبضة يدى إلى الأبد .



استيلاء الاشوريين على مدينة باكتر

الرؤيا السادسة

وكانت الشمس . سيدة الحيـــاة ومخصبة الأرض وسلطانة الكائنات ، ترسل أشعتها الفضية الوهاجة على ساحة المجزرة فتزيدها رهبة وهولا .

وكان الموكب الملكى يسير الهوينا فى مدينة بكتر التى ذلت بعد انكسـارها ويقطع طرقاتها يتقدمه حملة المشاعل المضاءة وكتائب الجند من رماة النبال والمزاريق . وكانت حيواناتى قد اختلطت بالجنـد

وأخذت تقفز أمام الموكب مرحة طروبة تزئر وتهر وتضج وقد أثارت غريزتها الوحشية رائحة الدم المنبعثة من أشلاء القتلى فأخذت تعبث بها بأظافرها . ودخلت إلى المدينة دخول الفاتح الظافر واقفة إلى جانب الملك فى مركبة ذات عجلتين تجرها جياد أصـــيلة مطهمة قد زينت ناصيتها بأبدع الحلى وأروعها . وكأنها كانت عالمة بمكانة قائدها فكانت تختال عجباً وتتيـه دلالا . وكانت طيورى تحلق حول رأسى كالهـالة وفهـــدتى كت سان تسير إلى جانب المركبة وادعة هادئة . وكان نينوس يداعب أذنى بكلمات رقيقة تعبر عن حبه الصادق العميق فيخيل إلى أن فؤادى يقفز فى صدرى قفزات الليث إذا سجن فى قفص . وبعد أن استمتعت أنظارنا بمشهد تلك المدينة الرائعة التى ذلت بعد عزها الخالد وعاث فيها رجالنا فساداً فجزوا أعناق رجالها وفتيانها وسبوا نساءها ودنسوا أعراض فتياتها . وقفت والملك بقصر أمير البكتريين الذى أسر. فأذا بهذا الملك التعس

الساقط عن عرش مجده وعظمته وإلى جانبه وزيره نيرتيكس الجندى الباسل جاثيين على وجه الأرض مكبلين بالسلاسل والأصفاد يرقبان حكم القضاء عليهما . أما نساء الملك وبناته فقد أرسلن إلى خيمة نينوس مع بقية سباياه وغنائمه الملكية . والتقت نظراتى بنظرات نيرتيكس فأثر فى نفسى هدوؤه وسكينته. فالناظر إليه كان يستشعر بما يخالج ضمير هذا الأسير العظيم من الكآبة مع صفاء السريرة مما لا يتوفر إلا فى النفوس العالية. فمثل هذه النفوس فقط تستطيع احتمال مثل هذا الشقاء العظيم بمثل هذه الأنفة والاباء . وكان قواد نينوس قد علقوا بشفتى الأسيرين السفليتين حلقة ذهبية تدلى منها حبل من الوتر فأصبحا لا يستطيعان حراكاً . وتناول أحد القواد الحربة التى يستعملها الملك فى مثل هذه الظروف ، وتبعاً للعادات المألوفة، لينتزع بها النور من أعين ملك البكتريين ووزيره . ولكننى أوقفت ذراع نينوس التى امتدت لتتناول الحربة فالتفت إلى وسألنى بشىء من الدهشة :

— ما هى رغبتك يا سميراميس . يا يمامتى الوادعة ؟

— هبنى حيـــاة الملك وحياة وزيره وابق على نور عينيهما .

فسألنى نينوس مشدوهاً :

— ولـكن لماذا ؟

— قل أن يوجد على وجه الأرض صديق مخلص فهو أندر من العنقاء . فلو استطاع الانسان أن يجعل من عدوه صديقاً له لتوفرت فىهذا العدو عوامل الاخلاص والوفاء أكثر من أصدق الاخوان

فأجابنى نينوس وهو يداعبنى بابتسامة رقيقة أثرت فى نفسى :

— فلتكن إرادتك إرادتى يا سميراميس .

وما أن انتهت الوليمة التى أقامها نينوس فى قصر الملك الأسير ودعا إليها جميع القواد والوجهاء وحظيت فيها بشرف تقديم كأس الظافر إلى الملك وأصبحت وإياه منفردين ، حتى استجمع نينوس شجاعته وتكلم . وكان

لا بد - مع ما طبع عليه من الحياء - أن يكون قد استلهم الحب واستعان بآلهته ليتغلب على طبيعته :

— أي سميراميس . أي يمامتي الوضاحة الثمينة . انى أشعر بانك سليلة الآلهة العظام ، وأرى أنوارها الساطعة تشع من عينيك ، وعقلك الراجح يستضيء بحكمة الأله نيبو ، إله الفطنة والذكاء وحامل مفاتيح الأسرار العظام والحكم فى منازعات القضاء والقدر . لقد حققت سحر بابل وأجدت القراءة فى كتاب السماء حيث تقوم الكواكب مقام الكلمات والألفاظ . المجد لك فى العلياء يا من أنقذت الملك وسلطانه . إن لك عنصرين : عنصر السيف والقتال كالأبطال ، وعنصر الرقة والجمال كالنساء ، وإننى لأسجد خاشعاً أمام هذين العنصرين مدفوعاً بعاطفة الاخلاص أولا ، ثم بعاطفة الحب . الحب الجميل الذى اعترانى وملأ فضاء قلبي منذ اللحظة الأولى التى أبصرتك فيها وصادفت عيناى عينيك الذهبيتين . سميراميس ! إننى مدين لك بكل شيء . سميراميس إننى أشعر بأنك نصف

نفسى وأننى لم أستمتع بلذة الحياة إلا منذ اليوم الذى عرفتك فيه . سميراميس ! أتريدين أن تصبحى زوجتى ؟ أتريدين أن تشاطرينى مضجعى وعرش أشور ؟ أتريدين أن تحكمى معى على البلاد والوديان وعلى الجبال والبحار التى افتتحتها ؟ هل تريدين أن تكونى السيدة الآمرة على « سومر » بابيلونيا الجنوبية و « عقاد » بابيلونيا الشرقية ؟ هل تريدين أن تحكمى على الخافقين من المشرقين إلى المغربين ؟ ألا إننى لأجعلن لك من ظهور عبيدى طنافس لا نهاية لها تسيرين عليها ، وتنحنى لك هامات الملوك العظام وتخضع لك آسيا وأفريقيا . هل تريدين معاونتى على قيادة شعبى فيزدهر سلطانى بعقلك الراجح وتزدان به عظمة ملكى ؟ لا تعترضى . فأنا أعرف وجه اعتراضك سلفاً . وأقدر ما تظنين أنه حائل بينك وبين رجائى ، وهو فولوك ، زوجك الجندى العظيم . لسوف آمره أن يتخلى عنك وأقدم له إحدى بناتى ليتزوجها

كنت فى هذه اللحظة صافية الذهن . وكان فؤادى هادئاً يعمل بما توحى به إرادتى فأجبته بلا تردد :

ــ ليس هـذا هو الاعتراض الوحيد الذى تثيره خادمتك الوفية الأمينة أيها الملك . فاستمع إلى قولى يا نينوس وافقه كنهه جيداً . لست امرأة كغيرى من النساء . ولست عروساً يلهو بها الرجل بضع لحظات فى سبيل إرضاء شهوته . فأنا ثائرة على هذه النظم القديمة والعادات السافلة الدنيئة المتبعـة فى اشور منذ أعوام طويلة . فليست مكانتك هى التى تغرينى أو تستهوينى . فما أحبه فيك ، إنما هى نفسك الأبية وفؤادك الوادع وشجاعتك الجامحة . إننى أعلم وأشعر جيداً أن فى مقدورى أن أعزز مكانتك ، وأن أداوى القلق الذى تطبعت به وأعيد إلى نفسك ثقتها التى تزعزعت ، وأسدد خطاك المترددة المرتابة . كما أعلم جيداً أننى أستطيع أن أحسن خدمتك . ولـكننى أكرر لك القول أننى لست امرأة أسرتنى الشهوة بأشطانها لترضى من اللذة بمداعبة

وقتية من مليكها . فأذا ما استسلمت إليك يا نينوس فلسوف يكون ذلك بمحض إرادتى وعملا بما يوحيه إلى عقلى وميول قلبي . فأذا أنت أذعنت لأرادتى ، وإذا أنت استطعت أن ترضيني وتطهر خدرك من هذه المخلوقات البشعة الشنيعة التى تحيط بك ، حينئذ ، وعلى هذا الشرط فقط ، لا يضيرنى يا نينوس أن أجلس إلى جانبك على عرش آبائك ، وأطلعك على الأسرار التى اؤتمنت عليها وخفايا السحر وسواها من المواهب التى ورثتها عن أمى الألهة دركتو .

فجثا نينوس أمامى وصاح باخلاص وحماسة :

— أى سميراميس ! أيتها المرأة المدهشة العجيبة ، أيتها المرأة السامية المعبرة عن الرغبات الالهية ، يامن تتنبأين عن الأخطار لتدرئى شرها بحكمتك . إننى أقسم لك بملكى ورعيتى، بشرفى وإيمانى ،ألا أحب غيرك وحدك وألا أعيش إلا لك وبك . فلسوف نكون زهرتين فى غصن واحد ، ولسوف تحملنا شجرة الحب العتيدة .

ونزع عن جبينه تاج الملك الذى يعصم حامله عن الخطأ ويقيه من الجنون وقدمه لى .

فطارت إحدى طيورى التى كانت لا تفارقنى واستقرت على كتفه ودنت منه فهدتى واضطجعت تحت قدميه . فأجبته :

— أى سيدى ومولاى العظيم ! أنظر إلى ما يبديه رفاقى من الخضوع والاحترام . إن غريزتها التى لا تخطىء تنبئنى بأنه يمكننى أن أركن إليك وأثق بقسمك ويمينك .

ومددت ذراعى إلى من اختاره قلبى وختمنا تعاقدنا بقبلة طويلة عميقة .

الرؤيا السابعة

ولم أشعر ، وأنا فى أوج انتصارى ، بشىء من الرحمة على حظ زوجى التعس . فقد انتقمت لدماء خليوس التى كان قد هدرها . وكان فولوك يهيم بحبى إلى حد أنه - مع الشرف العظيم والعطف الكبير الذى أظهره الملك نحوه بأن يقدم له ابنته ليتزوجها - لم يستطع أن يسلو غرامى ويعزى نفسه فى فقدى . فرفض بجرأة أن يطيع أمر مليكه . حينئذ أمره نينوس أن يجثو أمامى لينتزع نور

عينيه، فيفقد مع بصره ذكرى الاستمتاع بمشاهدة جمالى. فطار عقله وأدرك أنه قد فقدنى وأننى انتزعت من بين ذراعيه إلى الأبد، وتوسل إلى الملك لينعم عليه بحق القضاء على حياته بيده. وشنق نفسه فى جذع شجرة.

ولم يكن أسفى عليه، عند ما أبلغت نبأ نهايته المحزنة، باعتبار انه كان سيداً لى وانى أرغمت على احتمال قبلاته بدون حب ولا باعتبار انه قاتل خطيبى. ولكن بصفة كونه قائداً عظيما جسوراً خسرته بلادى إلى الأبد.

واكتشفت أنى أحمل بين جنبى نفساً متشعبة الأطراف عظيمة الآمال. فقد شعرت بأن لكل فرد من أفراد رعيتى مكانا يحتله فى قلبى. وكنت أتمنى باخلاص أن أداوى شقاءهم وأهذب طبيعة نفوسهم. كنت أشعر من نفسى بقوة خفية وحماسة لم أعهدهما فيها من قبل. ولذلك فاننى لم أفكر مطلقاً فى الخلود إلى السكينة بعد العز الذى نلته والاعتصام بسلطة الملك لأننى كنت أنزع إلى غاية سامية وأرمى إلى غرض واحد وهو أن أخلد لنفسى

ذكرى تخلفنى وأن أترك لمرورى فى هذه الدنيا أثراً خالداً سرمدياً . فآتى أعمالا مجيدة رائعة وأسعى فى تحسين أبناء عشيرتى وجنسى . فهم وإن كانوا أشداء إلا أننى كنت أود أن يزدادوا قوة ونفوذاً .

كان الملك عمورابى ، الطيب الذكر ، قد وضع منذ جيلين ، أسساً متينة لهذا الصرح الكبير العتيد . فقد نظم وجدد عمل السومريين وملكهم الشهير جودع . فقد جاءوا قبل حكم عمورابى بعدة أجيال . وهم الذين خلقوا مدينة بابيلونيا العظيمة وضحوا كثيراً فى سبيل المحافظة عليها ونشرها . لقد باد السومريون عن بكرة أبيهم ، ولكن السومرية ظلت قائمة فهى ما زالت لغة ديننا ولغة العلم . وإن فى ذلك لأكبر دليل وخير ما يعزز نظرية خلود الروح بعد فناء الجسد .

وأردت من جانبى أن أعمل على تدعيم أعمال عمورابى وتحسينها .

أما نينوس ـ ذلك المخلوق المتحفظ المتردد الخجول الذى كان ينزوى خلف هدوئه الظاهر كما يحتمى الجندى بجدران قلعة حصينة ـ فانه لم يكن يفكر فى غير حبه لى . ولقد كنت أعلم كيف أحمل هذا السويدائى على الكلام وكيف أستميل فؤاده وأستدرك عقله لأحظى بتلك العصارة التى تكدست فيها منذ عهد بعيد بدون أن ينفع بها غيره أو ينتفع هو بها ، وكيف أنال رضاءه وموافقته على العمل فى سبيل رقى مملكته وتطورها تطوراً حديثاً .

وقد نفذ نينوس عهده لى ، فوهب جميع نسائه إلى أعيان دولته وقواد جيشه .

وأزف يوم زواجنا العظيم .

الرؤيا الثامنة

وقبل حلول اليوم العظيم بأسبوع قمت ونينوس بتأدية فروض الصيام، لأن الواجب كان يقضى علينا بالمثول أمام الهيئة الالهية العليا طاهرين من جميع الآثام. فبذلك فقط نستطيع أن نحظى برضاء وعطف إهستار إلهة الحب.

وعمــلا بالتقاليد والعادات المتبعة وقفت بين يدى الـكاهن الأعظم وأخذت أصب الماء المقدس على جسد من لا يلبث أن يكون زوجى. فقد كان يتعين علىّ - بتنفيذ هذه المراسيم المقدسة - أن أمحو منه كل أثر للماضى وماهو

عالق به من الأدران، وأن أطرد بصلواتى وخشوعى ما يكون قد ظل عالقاً بذهن نينوس من ذكريات غرامه السابق . وكان الملك مخلصاً جد الاخلاص فى ابتهالاته . وكان حبه لى عظيما يشع من نظراته كالشهب فيخترق فؤادى . فشعرت بغبطة عظيمة اهتزت لها ألياف قلبى . وحينئذ فقط تأكدت من أنى قد نلت ماطالما تمنيته وطمحت اليه نفسى .

وفى اليوم التالى، عندما توجت ملكة ووقفت الى جانب الملك، خيل إلى أنى أحمل فى نفسى شطراً كبيراً من عناصر الألوهية .

واكتظت طرقات نينيف بجماهير الشعب . وكانت الأوامر قد صدرت لتحمل كل امرأة وردة بيدها وأن يحمل كل رجل مبخرة . فكانت آلاف الأزهار والبخور المتصاعد من المباخر تنشر فى الجو نكهة رقيقة لذيذة حمل الريح عبيرها إلى مدى بعيد حتى خيل أن المدينة بأسرها قد أصبحت أشبه ببركة ملئت بالعطور . والى جانب ذلك

كله قد تحتم على كل عذراء أن تكلل جبينها بأكليل من الزنبق . وكسيت جدران المعبد بالمخمل الأحمر تتناثر منه أهداب منسوجة من الذهب والفضة ، فكان منظره آية من آيات الجمال الساحر . وكانت جميع الشرفات كشرفات المعبد مكتظة بكهنة كوكب المريخ وهم واقفون بلا حراك كتماثيل من حجر الجرانيت وجباههم معصبة بقطع من الحرير المختلف الألوان . وعلى جانبي المعبد تمتد سلالم من المرمر ربضت عليها أسود من البازلت كبيرة الأحجام كأنها القلاع وهي شاخصة الى المعبد بعينين من العاج يتطاير منهما الشرر وبراثنها متقلصة في الأرض كما لو كانت تتحفز للوثوب . وعندقدمي كل تمثال من هذه الأسود وقفت نمرة حقيقية وضعت في عنقها قلادة من الحرير والذهب مزدانة بمختلف الأزهار وقد أمسك بطرفها فتيان مرد كأنهم فتيات .

وتصاعدت من جوف المعبد ألحان موزونة رقيقة عذبة .



الملك نينوس يقدم تاج الملك الى سميراميس

وأخذ الشعب يتجمهر حول منزل الآلهة، فيحول دون اقترابه من المعبد سياج من الجند يحملون النبال وقد شدوا أقواسهم وسددوا سهامهم استعداداً للطوارىء . وأخذت صفوف الكهنة تتحرك وقد حمل كل منهم على كفه كوكباً من الذهب والفضة. وكانوا، إذا ادانوا، لقبوا بعضهم بأخوة النجوم ورفعوا فوق رؤوسهم تماثيلها فيسجد الشعب أمامهم خاشعاً متعبداً . وكانت دمدمة الاعجاب والاجلال تتصاعد من الأفواه عند مرورهم فتتألف منها أصوات مختلفة الأنغام كأنها الألحان .

وتلا هؤلاء الكهنة رهط آخر من النساك يرتدون الثياب الصفراء . تلك كانت فئة عبدة الشمس . تنحسر أمامهم الرؤوس ولا تتطاول اليهم الأنظار أو تحدق فى وجوههم. وكذلك فان النور كان لا يداعب وجناتهم إلا بين جدران المعبد .

وكانت نغمات الناى والدفوف النحاسية متوازنة مع خطاهم وحفيف أثوابهم. ثم هدأت أصوات الدفوف فجأة.

وتصاعدت النفثات من أعماق الصدور وظهر موكب العروسين الملكى .

وكان يتقدم الموكب فارسان . أحدهما يمتطى صهوة جواد أسود حالك كظلمة الليل البهيم وهو يحمل فوق كفه عقابا . والآخر يعتلى ظهر فرس بيضاء كالثلج وعلى كفه يمامة بيضاء . وهذان الفارسان يمثلان الحياة والموت، فمرا فى وسط هذه الجموع التى استولى عليها سكون رهيب أشبه بسكون القبور . وتلا الفارسين فيلان أبيضان كأنهما قطعتان من ثلج الهملايا . وعلى ظهر كل منهما هودج أسدلت عليه ستائر من المخمل الثمين الموشح بالحجارة الكريمة النادرة . وكنت ونينوس واقفين تحت قبة الهودج تربطنا الى بعضنا سلسلة ثقيلة من الذهب الخالص تتخللها أحجار الياقوت والزبرجد الوهاجة حتى لا تكاد الابصار تحتمل بريقها . وكان يستر جسمى البض ثوب من الدمقس الناعم الناصع عقدت عند أطرافه وبين ثناياه شرائط من الذهب مطرزة باللؤلؤ، وعلى خصرى وفوق

صدرى عقد زنار من الحجارة الكريمة الزرقاء . وكانت ذراعاى وساقاى عاريتين إلا من بعض عقود رفيعة من الجواهر الثمينة . وكنت أحمل الى جنبى حساماً صنعت قبضته من الذهب الخالص وجرابه من الذهب المطعم بالتبر . وأنتعل حذاء كحذاء الجند تذكاراً لانتصار الجيوش التى قدتها عند الاستيلاء على مدينة باكتر . ولم يكن ما يدل على أننى امرأة إلا الوشاح الذى كان يستر كتفى ، وقد كانت الريح تضربه فيكشف عن صدرى وذراعى ، وكذلك ابتسامتى الرقيقة ونظراتى الساحرة التى كنت أداعب بها أفواج الشعب فيسجد لى خاشعاً .

وكان الملك واقفاً بجانبى كالدمية وعلى رأسه تاج مثلث الأركان يستر جزءاً من شعره الأشقر ، وعيناه تحدقان فى وجهى وتعبران عما يخالج قلبه من حب وهيام . وكانت الريح تضرب بوشاحه الذهبى نحوى فيضمنا إلى بعضنا ، وإذ ذاك لم يقو الشعب على امتـــلاك عواطفه وكتمان شعوره وما يكنه نحونا من حب وعبادة فانفجر

فدوت صيحاته فى الفضاء كهدير الرعد وتجاوب صداه على بعد عدة أميال . وجزعت الفهود وأخذت تموء بحدة وهدرت الأفيال بشدة . أما كت سان فهدتى الوفية فكانت تسير أمامى بعظمة وافتخار .

وفى تلك اللحظة تحركت صفوف الكهنة فى الشرفات وأخذت تنحدر على السلم حتى خيل أن المعبد ومن فيه قد أخذ يتحرك ويدور على نفسه كما لو كانت قد أخذته هو أيضاً هزة الطرب . وحلقت طيورى فى الفضاء فوق رأسى فغطت لحظة معالم السماء .

وما إن اقتربنا من باب المعبد حتى ألفينا الكهنة فى الانتظار . وتقدم منا واحد منهم وخاطبنا قائلا :

— أنا المبشر . إن الكواكب قد تحدثت إلى . ولكى أعى جيداً ما تقوله وأسمع أصواتها جلية واضحة فان السموات قد فتحت فى وجهى أربعين باباً من أبواب الحكمة المؤلهة المقدسة . إننى أعلم ما وراء الغيب ، وهأنا أتنبأ : « ستكونان عظيمين أيها الزوجان الكريمان .

وأنت أيتها الملكة لسوف تكونين شهيرة وتتناقل الأسفار أخبار عظمتك . إن الأجرام تعلم ذلك . والشمس ترضى به . والحب يريده . لقد قلت ! »

ودخل الفيلان إلى المعبد بلا عناء أو إحناء رأسيهما . ودارا حول الهيكل بحملهما الملكى ثلاث مرات . وعند انتهاء الدورة الثالثة جثيا على ركبتيهما فنزلت من الهودج مع الملك . واقترب المبشر منا مرة أخرى وأعاد النبوءة العجيبة :

« ستكونان عظيمين »

وساد الصمت فى انتظار غروب الشمس وظهور أول كوكب فى السماء .

وما كاد يبدو لأعين الكهنة المدربة حتى تنهد المبشر الصعداء وقال بصوت جهورى :

ــ أيتها الطهارة . أيتها الرقة . اجمعى بينهما . انظرى إلى أيديهما وأقدامهما وجفونهما فهى وقف عليك .

فانحنينا . وأحنى الكهنة رؤوسهم وأخذوا يتمتمون

صلاة خفية . وانتصب الفيلان بقفزة واحدة يحملانى والملك فوق ظهريهما .

وأصبحت ملكة !

وفى الخارج كانت آلاف المشاعل تضىء جميع الأبراج والسلالم فتخلع على المدينة حلة قرمزية زاهرة . وينعكس نورها على صفحات الماء فيزيد المنظر رونقاً وجمالا . وبدا الكهنة وعظماء الدولة وأفراد الشعب بثيابهم الزاهيةفامتلأت القلوب بهجة وحبوراً.

وفى وسط هذه المظاهر العظيمة وهتاف الشعب عاد الموكب الملكى أدراجه إلى القصر .

الرؤيا التاسعة

كنت قد حققت حلمي . فكنت أعيش سعيدة فخورة إلى جانب زوج يحوطني بجميع مظاهر الرعاية والاحترام والحنو . ولقد كان شعوره نحوي أسمى من الحب وأشبه بالعبادة . فكنت في نظره أمثل القدر. فلا يقدم على أمر من أمور الدولة أو يذيع قانونا جديداً قبل استشارتي - لقد كنت في الحقيقة الآمرة وهو الوسيط المنفذ . ...

على أنني ـ قبل الاستطراد فى سرد قصتى ـ أرغب فى وصف موقع وطنى وطبيعة تربته وعوائده .

كانت أشور بلاداً منبسطة الأرض ـ فكان يجب ـ لتشييد المدن ـ إقامة هضاب من الطوب النيء ليتسنى بناء المساكن فوقها وكلها من الطوب . وكانت قمم هذه الهضاب مزروعة بالحشائش ومحاطة بخنادق واسعة عميقة . إلا أن الحجارة والرخام كانت تنقصنا بدرجة محسوسة . وكان منظر القصر الملكى جميلا جذاباً تقوم إلى جانبى مدخله تماثيل هائلة على شكل عجول وأسود مجنحة ورؤوس بشرية رمزاً إلى الملائكة والأرواح . وكان القصر مرتفعاً ومشيداً بالطوب الملون إلا فى بعض أجزائه فقد كانت مغطاة بالكلس ومحلاة بالرسوم التى تمثل بعض المناظر الطبيعية والمواقع الحربية .

لقد كان فن الحفر والنقش عندنا وحشياً ، ولكنه طبيعى شديد التأثير، جميل فى وحشيته كروح الأشوريين الثائرة . ومع ذلك فالفن يعد منذ القدم دليلا ساطعاً على

العنصر ومثلا للادارة ونتيجة لجهود محدودة . وماوصل اليكم من قطع النقش الأشورى تعبر لكم أصدق تعبير عن بأس شديد وعزيمة صادقة ، فهى بمثابة دليل قاطع على حركات وسكنات دولة ، هى وإن كانت حربية ، فانها لا تخلو من طابع الكمال .

وكذلك كنا نسر ونرتاح للأحلام الخيالية المجهولة التى كانت تصل بين العناصر الأرضية والعناصر السماوية. وهذا ما جعلنا نرمز عن أحلامنا بتمثال فى هيئة حيوان شديد البطش. وقد استعرنا له جسم الثور وأعضاءه وأضفنا إلى هذا الحيوان الغريب ساقا خامسة ليكون منظره أوقع فى النفس وتأثيره أشد وأرهب . ولم نمنحه من مميزات البشر غير رأسه، وهى رأس رجل، لأنها محط العقل المفكر . وتتفرع من هذا الجسم الصلد أجنحة تحمل إليه شيئاً من الخفة التى ترمز إليها ، ولكنها تمثل بأجلى بيان أخلاق هذه العصور النائية . إن الرمز فى الواقع واضح جلى فهو دليل على القوة البدنية الثائرة التى

يروضها الذكاء والتي تتأهب إلى استعمال أجنحتها للتحليق في الفضاء وادراك السموات . في مثل هذا الشكل يندمج الحيوان والانسان والملاك . وهكذا فهو يجمع بين العناصر كلها : القوة والفكر والكمال. ولذلك أسميناه «الكنوب»

لسوف يظل الفن، بالرغم من كل شيء، الكاتب الوحيد والمدون الأعظم لتاريخ الشعوب .

وبالرغم من مرور نيف وأربعين قرناً نرى الفن يعبر تعبيراً واضحاً جلياً عن مدينة آسيا ويبعث بها من القبور .

وكان لضـــياء الشمس تأثير عظيم في الألوان فهو يزيد في عظمتها وبهجتها . واستعمال النوافذ يكاد يكون مجهولا لنا ، فلا توجد في المساكن غير فتحات مرتفعة ضيقة ينفذ منها الضوء، وهكذا كانت الحجر تضاء نهاراً بواسطة تلك الفتحات وليلا بمشاعل معلقة على الجدران بحلقات من النحاس. ومما يجدر ذكره أن المطر كان ، لحسن الحظ ،قليلا ونادراً، فكانت الشمس المطهرة تغمرنا

طوال السنة بأشعتها المحسنة الجميلة . ومع ذلك فعند ما كان المطر يتساقط كانت مياهه تخزن فى الأقنية بواسطة مسقة معدة خصيصاً فى كل حجرة ومصنوعة من الفخار على شكل اسطوانة ومتصلة بغيرها أكبر حجماً منها ممتدة تحت الأرض فى الحجرة الرئيسية فتنتقل المياه من واحدة إلى أخرى حتى تصب فى نهر دجلة .

وكانت جدران حجرة الاستقبال محلاة بألواح من الالباستر المنقوش بمهارة وفن دقيق، وترمز إلى حفلات الصيد أو المواقع الحربية او المواضيع الدينية . وإلى اسفل كل نقش رسمت عبارات متوازنة لشرح ما يتضمنه كل مشهد . وكانت الحروف الفارغة مطعمة بالنحاس اللامع الوهاج مما يزيد منظر الحجرة رونقاً وجمالا . وفوق النقوش رسمت صور ملونة تمثل شتى المواضيع . فمنها ما يمثل الملك محاطاً برجال حاشيته وهو قائم باحصاء الأسرى ومنها ما يمثل أشجاراً رمزية مقدسة . أما فى الحجرات الصغيرة المجاورة للحجرة الكبيرة فكانت توجد سقوف

مقسمة إلى عدة أماكن مربعة حليت جدرانها برسوم ملونة تمثل أزهاراً وحيوانات وغيرها وكلها مطعمة بالعاج. وكانت العمد التى تقوم عليها هذه الحجرات مذهبة . فقد كنا نتعشق كل ما كان لامعاً براقاً . وتحت عتبة كل باب ندفن بضعة رؤوس صغيرة تمثل الآلهة كتعويذة للتبرك ودفع الأذى، وكانت العادات تقضي بنحر الضحايا أمام الدور لأن الدماء المهدورة كانت فى نظرنا خير وسيلة للوقاية من الشر ودفع الأرواح الخبيثة .

وطالما ثرت على هذه العادة التى كانت تمجها نفسى . ولكنه كان من الصعب محاربة عادة قديمة متأصلة فى نفوس الشعب وقائمة على الخرافات والأوهام .

ولم تقو عزيمتى على تغيير شيء من هذه العادات .

الرؤيا العاشرة

وانقضى عام على توليتي الملك واعتلائي عرش أشور.
وكنت أعاون الملك على إعادة تنظيم المقاطعات التى بسطنا حكمنا عليها، وتأييد سلطاننا على المدن التي افتتحناها، وإصلاح البلاد مما لحق بها من الاضرار، فأحاق بها وبأهلها من البؤس والمحن من جراء الحروب التى خاض الملك غمارها. وطالما كنت أهدىء من حدة نينوس وألين من عريكته وأعجم عوده وأخفف من شوكة نزعته

الطامحة الى القتال . فكنت أدلي اليه بمختلف الحجج وأقدم له البراهين لأقنعه بأن شهرة الفاتح الظافر وإن كانت - كما كان يميل الى الاعتقــــاد به - تزداد وتنتشر بكثرة الانتصارات المتتابعة . إلا أن الشعب سوف لا يلبث أن يشعر بالضعف والوهن لاضطراره الى بذل قواه الحيوية وجهوده المعنوية نائياً عن أهله ووطنه . وكنت اؤكد له أن الوقت قد حان ليهتم بشؤون أمته وداخلية ملكه ويعمل على سعادة شعبه ورفاهيته. وأنه لن يدرك تلك الغاية السامية إلا إذا كبح جماحه وضحى بالكثير من أنانيته وإثرته. فانتصح نينوس بنصحي وعمل برأيي ومكث عاما بطوله فى نينيف عاصمة ملكه فكان لا يغادرها إلا طلباً لصيد السباع . وبدأ الملك يشعر بميل إلى إدارة شؤون ملكه ويدرك أن عظمة الملك الحقيقية موقوفة على حسن إدارة الملك أكثر منها على المغامرات الخارجية والحروب فى البلاد النائية ، لأنها كانت تودى بشباب أمته وتجلب الفوضى إلى شعبه وتجر الفقر على جميع أنحاء بلاده .

وفى ذات ليلة ـ وإنى ما زلت أذكر غروب شمسها الجميلة وأشعتها الذهبية ـ كان نينوس جالساً إلى جانبى يبثنى لواعج غرامه وهو مغتبط مثلى بذلك الجنين الذى أحمله فى أحشائى والذى لا يلبث أن يرى النور.

وكانت طيورى تلتقط طعامها من كفى، وكت سان فهدتى الوفية الأمينة مضطجعة تحت قدمى. وهدأت الأصوات فى الخارج. فكنت أصغى مغتبطة إلى كلمات زوجى الرقيقة وهى ترن فى أذنى كأحب الأنغام وأعذب الألحان. وكان يخاطبنى بحنو زائد ويقول لى:

ـــ يا يمامتى ومليكتى. هذا الطفل الذى ستلدينه لى والذى تهبه لنا الآلهة. لشد ما سيكون حبنا له عظيما. لسوف يتوج غرامنا ويكون بمثابة فدية لسعادتنا. سيكون جميلا مثلك ياسميراميس. وستكون له قامتك الممشوقة الهيفاء. كما سيكون مهيباً ورقيقاً مثلك. ستكون له عيناك الذهبيتان وشعرك الأسود الحالك. وأنفك المعتدل المختلج. وشفتاك العقيقيتان وأسنانك البيضاء كاللؤلؤ. لسوف يرث عنك

الحكمة والحلم والارادة وملكة الاقناع وتلك المواهب العجيبة التى تمتازين بها فى إدارة الشعوب وعجم عودها وإخضاع رجالها . ولكن - إلى جانب هذا كله - سوف لا تكون له يداك وأناملك الصغيرة الرقيقة لأنه سيكون ذكراً كما وعدتينى بذلك . أليس كذلك ؟ .

— أجل يا مليكى الرقيق . لسوف يكون ذكراً . إننى أعلم ذلك .

— وبأى اسم ندعوه ؟

— نينياس. فهذا الاسم مشتق من اسمك . وكل ما يأتينى منك مقدس فى نظرى .

فى تلك اللحظة دوى فى الفضاء صوت نفير حربى مؤذن بقدوم رسول. فمزق حجاب السكون كما تفعل الشهب فى السماء . فقطب الملك حاجبيه وصاح :

— إننى لا أريد أن أقابله . لا أريد أن يعكر شىء صفو هنائنا .

— أنت مخطىء يا نينوس. فمن واجبنا استدعاء هذا الرسول

وسماع ما يحمله إلينا من الأنباء. لا تنس أن الملك لا يكون حراً دائماً. وأن أوقاته وقف على مقتضيات شعبه وخدمته.

ودخل الرسول وهو يلهث من شدة التعب. والعرق يتصبب من جسمه. والغبار يعفر وجهه وثيابه. وبعد أن جثا عند أقدامنا مد ذراعه اليمنى وتكلم:

ــ أيها الملك العظيم، وأنت أيتها الملكة الجليلة، إن السوجريين قد اعلنوا الحرب عليكم، وهم الآن فى طريقهم إلى هنا لا يبعدهم عن نينيف إلا مسيرة يومين. فالبدار البدار أيها الملك إذا كنت تريد أن توقف سيلهم الجارف وتدرأ عن بلادك سيفهم الماحق.

فانتصب الملك واقفاً بقفزة واحدة. ولمعت عيناه ببريق غريب ولكنه تغلب عليه بسرعة والتفت إلى وقال لى بشغف وهو يضمنى إليه:

ــ قبل أن احبك يا يمامتى الرقيقة لم أكن أعرف ولم أتعشق غير الحرب. أما وقد علمتينى السعادة فلم تعد الحروب تجتذبنى إليها اليوم.

ـ ومع ذلك يامولاى العظيم فان الواجب يدعوك إلى حمل السلاح بلا توان ولا إبطاء . إن المجهود الذى ستبذله اليوم لهو دون طاقتك لأننى وا أسفاه ! لاأستطيع أن أرافقك . على أنك ستذهب فهذا أدنى واجباتك . ولسوف ألهمك الشجاعة لتفـــارقنى . ولسوف تعود ظافراً !

الرؤيا الحادية عشرة

وفى اليوم التالى لذلك اليوم الذى بدت فيه أول سحابة فى سماء سعادتنا، دعا نينوس كبار رجال الدولة وعظماءها فكانوا يحيطون به فى قاعة العرش . وقد وضع فى صدر هـــذه القاعة تمثال للملك كبير الحجم مصنوع من الذهب الخالص . وأمام هذا التمثـال عرشان متشابهان ، من ذلك المعدن النفيس ، فوق قاعدتين مرسـومتين فى هيئة حيوان مجنح رمزاً إلى الرعاية الخفية التى يستمتع

بها الملك من قبل الآلهة لتدرأ الشر عنه وتكلأه بعنايتها من كل تأثير سيء أو نفوذ خبيث .

ويصعد إلى العرش بثلاث درجات من المرمر الأبيض وضعت إلى جانبها مباخر النحاس وقد ملئت بالبخور. فكان الدخان يتصاعد منها ويملأ أرجاء الحجرة. فمن العادات القديمة أن تحرق الأعشاب الطيبة النكهة لتطهير الهواء المحيط بالمكان لأنهم كانوا يعتقدون أن الأشخاص المجتمعين فى مقدورهم الاصابة بالعين ، وأن الدخان الأزرق المتصاعد نحو السماء كفيل بأن يحمل معه المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة .

وقد نقشت على حواجز المدرج المرمرية رسوم حليت بالألوان الذهبية الزاهية، فكانت تمثل الملك وجميع خصائصه الملكية . صياداً للسباع أو ظافرا منتصراً ينتزع أعين الجند المقهورين، أو قائما بتقديم الذبائح إلى الاله مردوك، أو القرابين المقدسة إلى إهستار إلهة الحب . ومثل هذه النقوش المطعمة بالنحاس اللامع البراق

كانت تحلى جدران الحجر الصغيرة وتشيد بذكرى الملك وأعماله المجيدة .

وكانت الحجرة مستطيلة واسعة الأرجاء . متصلة بالساحة الكبرى الممتدة أمام القصر بمثات من الدرج المصنوع من الرخام والمرمر.

وكانت جميع النوافذ المؤدية إلى هذه الحجرة موصدة فى هذا اليوم . فلا سبيل إلى الوصول إليها إلا من الباب الكبير المقوس القائم فى وسط التماثيل الضخمة . وهذه التماثيل كانت ، كما أسلفنا القول ، تمثل الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية والأرجل الخمسة . فكانت رؤيتها تذكر جموع الشعب وكبار رجال الدولة عظمة من شادوها وسطوتهم .

وكنا، ونحن وقوف على العرش،نشاهد رجال البلاط يميسون أمامنا بثيابهم البيضاء الموشحة بالخيوط الذهبية . وكانت الشمس ترسل أشعتها من الثغرة المفتوحة فوق الرؤوس وتنفذ إلى الحجرة من الباب الكبير المؤدى

إلى الساحة فتصطدم أشعتها بالخوذ والدروع النحاسية التي يرتديها الجند فتحدث بريقاً ساطعاً تنحسر له الأبصار .

وكنت ونينوس قد ارتدينا ثياب الحفلات الرسمية الكبرى . وكان ثوبي من الكتان أزرق اللون مطرزاً بالذهب الخالص ، وعلى كتفي وشاح كبير أزرق موشح بالخيوط الذهبية مسترسل على صدري فيضم قامتي ويلتف حول خصري كالأفعى حتى نهاية ساقي فتتجلى جميع أجزاء جسمي الغض . وحلى المعطف بمختلف أنواع الحجارة الكريمة التي نظمت بحسب أوضاع الأبراج والكواكب في القبة الزرقاء فكان منظرها وضاء جميلا . ووضعت على جبيني تاجاً مرصعاً بالزمرد واللؤلؤ . وطليت شعري بطلاء أزرق ليتناسب مع لون ملابسي وتركت جدائله مسترسلة على كتفي . وكان يمامي يحلق في الفضاء حول رأسي . وفهدتي الوفية مضطجعة عند قدمي متيقظة لأقل حركة . فكانت تراقب الجموع عن كثب

وكانت الأساور النفيسة تملأ جيدى. وذراعى العاريتين حتى منبت الكتف تلمعان تحت أشعة الشمس. وكنت أحمل بيدى صولجاناً من الذهب الخالص نقشت قبضته على هيئة يمامة من نفس ذلك المعدن الثمين. وفى يدى اليسرى مروحة ثمينة من ريش النعام تتخلله خيوط ذهبية رفيعة. وفى قدمى حذاء من جلد الوحوش الكاسرة مطعم بحجارة الزبرجد الوهاج.

وكان الملك يرتدى معطفاً من المخمل الأحمر المطرز بالذهب فيتناسب مع معطفى. وله زنار ذهبى يلتف حول قامته ويتصل بكتفه الأيسر بمشبك من الذهب. وكان يلبس تحت المعطف قميصاً من الكتان الأحمر الناعم. وعلى صدره لوحة من الذهب مستديرة منقوشة بنقوش بديعة فنية تمثل ملكا مجنحاً له ذيل طائر وهو يحمل بيده قوساً ونبلا مسدداً. وقد وضع نينوس على رأسه التاج النفيس المثلث الدرجات الذى تناقلت أخباره الركبان ولا يملك أحد تحت الشمس حق وضعه على

جبينه غيره . وفى عنقه سلسلة ذهبية علقت بها تعاويذ مقدسة كلها من الذهب المنقوش . وكان نينوس يحمل فى يده اليمنى صولجاناً طويلا ويده اليسرى متكئة على قبضة حسامه وهى من العاج النقى وتمثل أسدين يتناظران وهما متخاصران . وكنت قد وهبته هذا الحسام يوم زواجنا بعد أن تلوت عليه الآيات والتعاويذ السحرية لتقيه شرة الأعداء وشر الهزيمة والاندحار . ووقف خلفنا خصيان يحملان المظلات لترد عنا غائلة الشمس الأسيوية وأشعتها المحرقة . وخلف الخصيان عدد وفير من العبيد والاموات يحملون المراوح ليدفعوا عنا وطأة القيظ ويجددوا الهواء .

أما ملابس رجال الحاشية فكانت أقل بهجة وأبهة من ملابس الملكين . فهى عبارة عن ثوب واحد يطول ويقصر بنسبة المكانة التى يحتلها لابســــه أو يشغلها فى البلاط الملكى .

وكان نينوس شاحب اللون إلى حد كنت أشعر

معه بالقلق الشديد . وكان متأثراً جداً لفكرة أنه سيضطر إلى هجرى . فكنت أسائل نفسى عما إذا كان سيجد من نفسه القوة الكافية ليخطب فى جنده وشعبه .

ووقف الملك فى النهاية فساد صمت رهيب كأن مـــلاك الموت قد رفرف على رؤوس الجميع . وتكلم الملك فأصغت له الآذان وحدقت فيه العيون :

ـــ يا أتباعى الأمناء ، ومن ضمهم هذا المكان من محاربين وقواد ومقاتلين ممن تبعونى إلى حومة الوغى وخاضوا إلى جانبى غمرات القتال حيث بسم لهم النصر وازداد مجدى بشجاعتهم وإقدامهم ودمائهم المهرقة . إننى اليوم أعود إلى ما كنت عليه ، سيد الفضاء ، وتعودون كما كنتم الأذرع القوية التى ستساعدنى على قهر القضاء . سنذهب بعد لحظات معدودات لنعاقب السوجديين اللئام على وقاحتهم وتحديهم فنكيد لهم كيداً . ولسوف تكون سيوفنا قاطعة ماحقة ورماحنا خارقة ونبالنا صائبة . وإنى لعلى يقين من أن الدرس الذى سنلقيه عليهم سيكون

قاضياً حاسما ، فتفغر القبور أفواهها لتضم جثثهم ونشرب من دمائهم فى اقحاف رؤوسهم . إن شجاعتهم معلومة لنا وقسوتهم غير خافية علينا . ولكننا سنكون أشد قسوة منهم وأغلظ قلباً . إنى لأشعر الآن بغريزتى وميولى الحربية تهتز طرباً وترقص فرحاً لأننى سأقود كتائبى وأخوض بها المعارك التى أغفلناها ردحاً من الزمن . ولا يعكر سماء سرورى وغبطتى غير سحابة واحدة : إن الملكة ، زوجتى الجليلة المحبوبة ، لا تستطيع مرافقتنا فنحن فى انتظار ولى عهد لمملكتى .

وهنا احتبس صوت نينوس . ولكنه استطرد بصوت مضطرب :

— « فيا من يحول سنهم دون مرافقتى ، وأنتم أيها الشيوخ والنساء والمراهقة والعبيد . إننى آمركم جميعاً باطاعة زوجتى الجليلة طاعة عمياء وإحاطتها بجميع مظاهر الاجلال والاحترام . ألا ومن بيده زمام نفسى . إن من يخالف منكم أوامرى المقدسة رجلا أ كان

أو امرأة ، لن يكون جزاؤه غير الموت العاجل وفى وسط آلام تشيب من هولها الأطفال والولدان .

« فألى شميراميس ابنة الالهة دركيتو وملكة اشور . والزوج التى اخترتها لنفسى ، وقاهرة البكتريين ، أسند مقاليد الملك خلال غيبتى . وأنيط بها حق التشريع والحكم المطلق . وأكل إليها مهمة إصدار القوانين والأوامر عملا بألهام ضميرها ووحى حكمتها . إن لها وحدها دون سواها حق دعوة مجالس الشيوخ ورجال البلاط إلى الانعقاد كلما دعت الحاجة ولها وحدها أيضاً أن تحل هذه المجالس كلما رأت ذلك مفيداً ناجعاً . . .

« وإلى مافروداك ضابط الحرس أكل أمر المحافظة على شخص الملكة المقدس الجليل . أما أنت يا نربال يا كبير كهنة الشمس الساطعة. وأنت يا كارنول يا كاهن القمر اللامع. فانى آمركما بالخضوع لارادة الملكة وتنفيذ رغباتها . »

وكنت قد وقفت بدورى فقابلنى الشعب بعاصفة من الهتاف وحيانى بصياح طبق عنان الفضاء :

— «أى نينوس سيد اشور . اننى لأشكرك على هذا الشرف العظيم، واننى لأقسم بأن أكون عند حسن ظنك بى وأن أستخدم لذلك جهود ذهنى وحمية نفسى وجميع عواطفى وشعورى . أما أنت يا شعب اشور فلسوف أدعوك إلى القيام بأعمال جليلة . لسوف أطهر بلادكم وأرفه عن نفوسكم وأصلح من معيشتكم وشـــؤونكم وأعلى قدركم، فتزداد شهرة رجالكم وبلادكم . ولئن كنت أتألم الآن من عجزى عن مرافقة الملك سيدنا فى هـذه الحملة . فاننى أتعزى عن ذلك بفكرة اننى سوف لا أفكر — خلال غيبته — فى غير إصلاح شؤون بلاده والمحافظة على كيانها وشهرتها . »

ونزلنا درجات المرمر الثلاثة بتؤدة وهدوء . واخترقنا طريقنا بين جماهير الاشوريين الذين كانوا يهتفون لنا مهللين ومكبرين . وسرت إلى جانب الملك حتى أدركنا المركبة حيث كانت فى انتظاره .

وكانت يده ترتعش وهى قابضة على يدى كما كانت

ترتعش فى تلك الليلة التى قدتها فيها لأول مرة إلى اسوار باكتر وهديته إلى طريق النصر. ولما حان وقت الفراق وأزفت ساعة الرحيل تقدم الملك منى وقبلنى تحت أنظار هذه الجموع المحتشدة ثم نزع قلادة الملك التى يحملها فى عنقه وحلى بها صدرى. فعلا هتاف الشعب من جديد وشعرت مرة أخرى بذلك الاحساس العجيب الخارق للطبيعة الذى تولده عظمة الملك، وخيل إلىّ أننى عظمت وارتفعت إلى مصاف الآلهة وان نفسى تحلق فى السماء.

وكانت الجياد التى تجر عربة الملك ثلاثة، وهى بيضاء مطهمة ومحلاة بأفخر العدد. وقد ربط فى ناصية كل جواد قرن من الذهب. وعلى ظهر كل منها وشاح قرمزى مطرز بحلقات من هذا المعدن النفيس. وإلى يمين الملك علقت كنانة من الجلد القرمزى المطعم بالذهب ملئت بالنبال التى اختص الملك وحده باستعمالها. وإلى جانب الكنانة بلطة حادة قاطعة. وكان الرمح مركزاً إلى جانبه عند

متناول يده . ووقف خلف الملك ثانى قواد الجيوش وقائد مركبة الملك وحامل المظلة .

وتحرك الركب الملكى يتقدمه حملة الأبواق والمشاعل . وسارت خلفه المركبات الحربية يجر كل واحدة زوج من الجياد وفى كل مركبة ثلاثة من الجند سترت صدورهم بدروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ المدببة وقد برزت من تحت أطرافها الشباك التى تعقد شعورهم .

أما رماة النبال فقد كان عددهم بعدد رمال الصحراء . وكانت خوذهم أدق صنعاً من خوذ بقية الجند . ولباسهم القصير يكشف عن سيقان عارية قوية العضلات تدل على القوة والبطش . ويحمل كل منهم درعاً كبيراً من الجلد . ومنهم من كان يحمل درعين لحماية قائده إذا ما حمى وطيس القتال واشتبكت الأجسام بالأجسام . وتلاهم حملة المقاليع يسيرون بنظام وسكون . فحملة الرماح الطويلة المناط بهم الاجهاز على الجرحى من

الأعداء . وكان حملة المزاريق يتقـدمون حملة البلط المعدة لتحطيم الحواجز أمام الجند عند الهجوم . ويلى الجند مركبات الحصار . فكانت تسير خلف هذه الجموع تجرها الجياد وهى أشبه بالحصون المنيعة المتحركة يعتلى أسوارها الجند لتسديد النبال وقذف المزاريق . ثم سلسلة طويلة من الهجن والجمال تحمل الخيام والذخائر . فعدد وفير من الحمير تحمل زقاق الماء لارواء ظمأ الجند فى الأراضى القاحلة أو أثناء الحصار .

لقد كان منظر هؤلاء الجنود ونظامهم دليلا على العظمة والبطش . ولا عجب فى ذلك فقد اشتهر الاشوريون من بين الشعوب الاسيوية بنزعتهم الحربية ونظام جيوشهم وطاعة رجالهم . وإننى ما زلت أذكر بالفخر شجاعة جنودى وجلال منظرهم ورهبة نظراتهم وهم سائرون إلى الموت كأنهم فى موكب عرس أو وليمة

الرؤيا الثانية عشرة

وفارقني نينوس . فبدأت نفسي ـ منذ تلك اللحظة ـ تشعر بوحشة كبيرة . على أن شعوري بالمسؤولية الملقاة على عاتقي مع عظمة المهمة التي نيطت بي قد ضاعفت نشاطي وشددت عزيمتي . وترددت طويلا في الطريق التي أسلكها لتحقيق غايتي الشريفة ، فكنت ألجأ إلى العزلة والتفكير وأنقطع إلى العبادة والتأمل عسى أن أنعم بالوحي الالهي . ان الله موجود في كل مكان وإن كان

غير منظور . فهو موجود فى وسط الطبيعة لأنها من بدائع صنعه خصوصاً وأن يد الانسان لم تكن قد عبثت بها أو غيرت شيئاً من جمال معالمها .

وفى اليوم التــــالى لرحيل الملك قصدت بمفردى بساتينى المعلقة وحدائق البديعة الغناء التى عنيت بتشييدها مذ اعتليت عرش الملك . وكنت قد نظمتها بعناية حتى بدت غاية فى الابداع . وحرصت على أن تمتد على شكل قنن ومرتفعات متناسقة تبدأ عند سفح القصر وتنتهى إلى أبعد مدى يدركه البصر .

ونجحت بعد جهود كبيرة مضنية فى نقل مختلف الأشجار والأعشاب والأزهار النادرة إلى هذه البساتين فازدهرت وأينعت ، وساعدت تربة أرض اشور على نموها . وكانت قلة المياه تحول دون سهولة ريها والاحتفاظ بهذه الرياحين وقتاً طويلا ، ولكن سرعان ما تلافيت هذا النقص فركبت قوة محركة لجلب المياه من نهر دجلة إلى أعلى قمة فى الحدائق .

وجلبت أندر الطيور المغردة وأسكنتها فسيح تلك الحدائق، فكنت أنعم بسماع تغريدها وأمتع طرفى بمشاهدتها وهى تتنقل مغردة على الأغصان . فكنت لا أشعر بسأم أو كآبة أو انقباض إذا خلوت إلى نفسى فى هذا المكان ساعات طوال وأنا شاخصة إلى هذه الأزهار معجبة بألوانها المتعددة الجميلة ونكهتها المعطرة الفيحاء . فقد كانت لكل زهرة مكانتها من نفسى ولغتها الخاصة التى تتحدث بها إلىّ فى صمت رهيب فتشق بها طريقها إلى فؤادى .

كانت مملكة اشور المترامية الأطراف ملكى وفى قبضة يدى لا ينازعنى فيها أحد . ومع ذلك فقلما كنت أشعر باستقلالى الذاتى المطلق إلا إذا لجأت إلى حدائقى . فهناك ـ بعيدة عن نظرات الجموع والأفراد ، نائية عن غوغائهم وضجيجهم، فى عزلة عن الأرض وأهلها ، قريبة من السماء وسكانها ـ كنت أشعر بلذة السكون الحقيقى الذى كنت أستمد منه الوحى وأجد فيه قواى .

وكان لشلالات المياه المتساقطة بهدوء وانتظام خرير هادىء يتناسب مع تيار أفكارى، فكان يخيل إلىّ أننى كنت اكتشفت فى كل شجرة وفى كل زهرة وفى كل ظاهرة من ظاهرات الطبيعة مستشاراً مخلصاً ومرشداً أميناً. لقد كانت طريق مكتظة بالأصدقاء الأوفياء الصامتين .

وسرت وحدي بخطوات متئدة هادئة . وقطعت طريقاً متصاعدة تحف بها الأزهار والرياحين . تحرسنى فهدتى التى كانت تختال أمامى وطيورى التى تحلق فوق رأسى . وما إن بلغت أعلى القمة - حيث لا يستطيع مخلوق أن يطأ أديمها حياً ، أو يصحبنى إليها بغير دعوة منى - حتى تفيأت إيواناً من المرمر فى ظل خميلة كثيفة الأغصان ، وأطلقت لنفسى عنان التفكير وضربت فى عالم من الأحلام . وما هى إلا لحظة حتى طرقت سمعى نغمات ناى شجية وألحان نقارات تقرع قرعاً هادئاً رقيقاً خفياً ، فتزيد أحلامى روعة وتجعل لأفكارى تأثيراً قوياً .

وكانت مدينة نينيف تنبسط تحت قدمى كالكف وادعة ساكنة . ونهر دجلة ينساب كالأفعى ويخترق المدينة كأنه شريط من اللجين . وفيما وراء النهر يمتد سهل لا تدرك الأبصار نهايته . ويلى هذا السهل ساحة القتال حيث لا يلبث أن يشتبك زوجى مع العدو إن لم يكن قد التحم الجيشان للآن .

لم يتسرب الشك إلى ذهنى فى مصير القتال . فقد كنت أعلم حق العلم أن نينوس سوف ينتصر . ولكننى كنت أعلم إلى جانب ذلك أنه إذا عاودته نزعته الحربية واستيقظت فيه غريزته الدموية فانه سوف لا يقاوم ميول نفسه الوحشية ولا بد له أن يعاقب السوجديين على تحديهم ومغامرتهم عقاباً أليماً . ويطاردهم حتى فى وسط بلادهم الجبلية وهى جد نائية عن هذه البلاد .

ومع ذلك فقد علمتنا التجارب أن النصر لن يتم إلا بالقضاء على العدو . وهذا ما كان يعلمه الملك جد العلم ، ففى كل مرة كان لا يمسهم بالسيف ، ويشفق عليهم

إذا ما فزعوا إليه ويسالمهم ويرؤف بهم إذا ضرعوا إلى الأمان فيهادنهم. كان يجـــد فى حلمه رادعاً وفى إحسانه زاجراً ، مما جعله يستبيح ذمار العدو ويجوس ديارهم ويدوخ بلادهم بسنابك خيله ويهتك حرمة نسائهم ويستبى ذراريهم ويذبح شيوخهم وأطفالهم . هذا ما كنت أتوقع حدوثه فى حملته الأخيرة ، ولذلك كنت أعد دورات القمر ودورات الأرض وأحسب عدد الشهور والسنين التى كان لا بد أن يقضيها الملك نائياً عنى فأشعر بانقباض فى صدرى وتعلو الكآبة وجهى .

كنت أقضى الساعات الطوال فى هـذه العزلة . وكثيراً ما كان يخيل إلى أن جسمى قد تبخر ونفسى قد ازدوجت ثم اندفعت ـ كما قدر لها أن تفعل ذلك مراراً ـ نحو الفضاء الأثيرى فتختلط بالكواكب والأجرام . وهناك ، فى هذا العالم المجهول ، كانت تستمد ما هى فى حاجة إليه من شجاعة وإيمان .

وكانت (شماش) الشمس قد جنحت للمغيب واحمر قرصها النـاري وبدأ يتوارى خلف الأفق وهو يلتهم الفضاء . وأحاطت بها سحابة كثيفة كأنها تسير فى ركابها لتشيعها إلى مقرها . وغدت السماء كجمرة ذهبية ساطعة فـكان منظرها بهياً رائعاً . واستبشرت نفسى بهذه الرؤيا الجميلة وعدتها فألا حسناً .

ومكثت ردحاً جامدة فى تأمل عميق كأن وحياً لايلبث أن يهبط من العلى فى وسط هذا السكون ليرشدنى سواء السبيل .

وبغتة تمثل أمامى شكل بهيئة إنسان وحال فى وقفته بينى وبين الكوكب الزائل . فانتصبت بحدة وصحت به محتدمة غاضبة :

— من ذا الذى يجسر ، فى مثل هذه الساعة وفى هذا الحرم المقدس ، على المثول بين يدى ؟ أيها الرجل الجسور المغامر . إن ساعتك الأخيرة قد دنت !

فأجابها المجهول بصوت هادىء رزين :

ـــ لئن قدر أن يتم ذلك أيتها الملكة فأن نفسى غير آسفة ولا جازعة . إذا أنا استظهرت بالمعصية على طاعتك وأقدمت على مخالفة أوامرك . فلأنى أشعر اليوم بعامل الاخلاص والولاء يدفعنى إلى القيام بواجب المثول بين يديك .

ـــ من أنت أيها الرجل المعتوه الذى يسعى وراء الموت فيتحدانى . ويتكلم عن الاخلاص والوفاء فى عالم ليس فيه إلا الغدر والخيانة ؟

ـــ لقد صح قولك أيتها الملكة . وربما قادنى إليك الآن شعور غير شعور الوفاء ، فأنا نيرتكس الكلدانى ، وزير ملك البكتريين . الذى أطلقت وثاقه وعفوت عنه وأبقيت على نور عينيه . وإننى لأباركك على حلمك لأننى أستطيع الآن أن أستمتع بمشاهدة جمالك الفتان .

وكنت قد تناولت صفارة من العاج مدلاة فى عنقى لاستدعاء رجالى . فاعترضنى نيرتكس وقبض على ذراعى بحركة فجائية عنيفة جمعت بين شدة العزيمة والأمارة .

وكانت عيناه تشعان ببريق ساطع ونور غريب يدل على قوة الارادة وقسوة الوحشية . حتى لقد خيل إلى أننى أرى فيه ـ لأول مرة فى حياتى ـ قوة ، إن لم تكن أشد من قوتى ، فانها لا تقل عنها .

واستطرد بصوت رزين رنان :

ـــ إذا كنت قد جئت اليوم إلى هنا فلأننى أريد أن أقوم بخدمتك .

ثم رسم بأصبعه فى الفضاء إشارة سريعة خفية

فصحت مشدوهة :

ـــ أو أنت مجوسى ؟

فأجابنى بهدوء :

ـــ أجل . وانى لأستطيع ، إذا شئت ، أن أوطد سلطتك وأوازنها أو أزيدها قوة ونفوذاً . انى أهبك عونى فهل ترفضينه ؟

وقام نزاع شديد بينى وبين نفسى .

فهل كان يجب على أن أشرك نيرتيكس فى عملى أو أقصيه عنى فأجعل منه عدواً مخيفاً صلب الشكيمة فى مقدوره أن يناوئنى ويخالف أوامرى ويحبط خطتى ثم ينجو من الموت الذى أقدره له ؟ كنت أعرف - من الاشارة التى رسمها فى الفضاء - مقدار سلطته.

وعظمت دهشتى عند ما رأيت كت سان ، فهدتى الوفية ، مع ما هى عليه من غريزة حساسة قل أن تخطىء عند الحيوانات ، قد تمددت تحت قدمى الكلدانى دلالة على الخضوع والاستسلام . وطيورى ، بعد أن حلقت فوق رأسينا تحليقاً سريعاً مضطرباً ، تهبط وتستقر ، بعضها فوق كتفى وبعضها فوق كتفيه . وتبدأ تسجيعها الرقيق .

وهبط الليل . وخيمت ظلمته على الكائنات . وكانت الليلة جميلة هادئة معطرة . وبدأت مصابيح السماء التى لا تعد ولا تحصى تضىء تباعاً . واكتنفتنا رهبة الليل بسحرها الخيالى . وسمعت صوته يناجينى :

— أى سميراميس . أنظرى إلى نجمك الحارس تاجليت . إنه يضىء فى هذا المساء بنور غريب لم يسبق له مثيل . وهذا يبشر بازدياد سلطتك واتساع نفوذك وسلطانك لو كنت تحسنين اختيار المنهج الملائم وتسلكين سواء السبيل .

والواقع أن تاجليت كان يرسل أشعة لامعة وضاحة . وكان يخيل إلىّ أنه يريد الانحدار نحوى من العلياء ليخاطبنى . وشعرت بضعف يستولى علىّ من شدة سرورى ثم تملكتنى نشوة فرح وإعجاب وصحت :

— نيرتيكس . إننى أؤمن بك. تكلم فأنا مصغية إليك.

وجلست على المقعد الحجرى . وكنت لا أستطيع أن أميز ملامح وجه الكلدانى، ولكنى كنت أشاهد قامته الطويلة وعظمة الهدوء والسكينة التى كانت ظاهرة عليه ومنبثقة من جميع كيانه . وهبت نسمة عليلة هادئة فعبثت بلحيته الطويلة . وبدت سنة وجهه فى الظل واضحة جلية . ومع أننى كنت لا أميز شكل عينيه ولا لونهما فأننى كنت

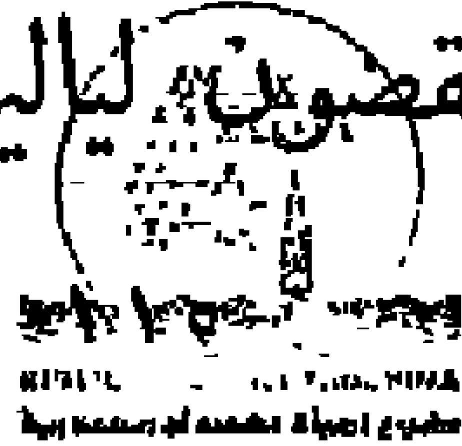
أشعر بنظراتهما الثقيلة المحرقة الثاقبة تحدق فىّ وتنفذ إلى أعماق نفسى بقوة كادت تسحرنى وتسخرنى لارادتها لو أننى لم أجاهد لأقاومها بنظراتى وأدرأ عنى تأثيرها وقوتها . واستطرد حديثه :

ـــ اننى أشعر بأنك ترتابين يا سميراميس . وإنك لعلى حق فى ذلك كما أن واجبك يدعوك إلى اليقظة والحذر . على أنك لو رجعت بذاكرتك أجيالا خلت . وتذكرت حوادث التجسد وانتقال الأرواح . إذن لعلمت أننا اتحدنا سوياً فى غير هذا العالم .

وصمت .

وشعرت بهزال فى قواى ووهن فى جسمى .

واضطرب منظر المدينة فجأة أمام عينى واستحال كالغمامة ثم اتخذ شكلا جديداً يختلف تماماً عن منظر أشور . ورأيت رجالا طالت لحاهم وهم يحدون عيسهم ويرعون قطعان أغنامهم ويضربون فى الأرض وراء وطن جديد أو ملجأ مأمون محمود . ويقضون لياليهم



تحت الخيام فى العراء ولا يعبدون إلا الله الواحد الأحد ويستنكرون عبادة الأصنام ويحملون فى نفوسهم تعاليم مقدسة سامية . ثم رأيتنى أمشى مع النساء السائرات خلف شيخهم الجليل ورأيت إلى جانبى المجوسى - وهو إذ ذاك زوجى - يرعانى بعنايته ويكلؤنى بحنانه وحمايته . . .

واختفت الرؤيا وعاد المجوسى إلى الكلام :

- هل اقتنعت الآن أيتها المرأة . يامن كانت زوجتى المحبوبة فى أحد العصور الغابرة ؟ وهل تفهمين لماذا أوقفتنا العزة الالهية إزاء بعضنا من جديد ؟ ان إيمانك برب واحد فى بلد عمت فيه الدمى والأصنام وانتشرت عبادتها ، ليبرهن لك على أنك ما زلت تحتفظين من الماضى برسوم لن تزول آثارها ولن تمحى . الحق الحق أقول لك . لئن تبادلنا سوائل نفسينا وتآزرنا فيما بيننا لأتينا المعجزات البينات . ألا إنك لم تحافظى على حياتى وتطلبى من الملك العفو عنى - على غير علم منك بما وراء ذلك من جلائل الأعمال - إلا لكى أقف اليوم بالقرب منك وأكون عوناً لك.

الرؤيا الثالثة عشرة

وطال بنا حديث السمر حتى انقضى الهزيع الأخير من الليل وتناولنا خير الوسائل وأقرب الطرق لأفرض إرادتى على شعبى وأعمل على رفاهيته وهناءته. وكان نيرتيكس يأبى إلا أن يكون الحكم للفرد ولا تقبض على أزمته إلا يد واحدة. ولفت نظرى إلى نقطة أساسية هامة : النفوذ العظيم الذى يتمتع به الكهنة وتأثيرهم الشديد على عقول الشعب وتدخلهم فى شؤون الدولة تدخلا حساساً جلياً.

وقال نيرتيكس :

ـ لا يمكن أن توجد سلطة حقيقية إلا إذا كان مصدرها فرد واحد وكانت نتيجة تفكير دماغ واحد . ليست للشعب أية ملكة للتمييز بين الخير والشر ، فهو لا يعرف كيف يقود زمام نفسه ولا كيف يصدر حكمه على من يقودون زمامه . فهو لم يوجد لغير الطاعة . وإنه ليثور إذا ما رأى نفسه مخيراً بين مبدأين متناقضين متعارضين . . . إن الكهنة يتطلعون بعين الغيرة والحقد إلى سلطة الملك . هذا أمر واضح جلى لا يحتاج إلى دليل أو برهان . فهم يحاولون بشتى الوسائل والأساليب ان يؤثروا على عقول الجهلاء لاكتساب ثقتهم عساهم أن يشبعوا أغراضهم ويحققوا مطامعهم ومآربهم ، فيقوضون أركان السلطة العليا ويفرضون على الأمة نفوذهم وسلطتهم . إن هى إلا وسيلة سافلة غير مشروعة ولكنها فى متناول يدهم ومن الميسور عليهم تنفيذها لاتصالهم اتصالا مباشراً بجميع أفراد الشعب وطبقات الأمة . . .

إن من واجب الملك أن يحكم أفراد رعيته ويسيطر عليهم، وإنه لن يستطيع أن يخضعهم لارادته إلا إذا تسلط عليهم بنفوذه وشدة شكيمته . . . إن تأثيرك على نينوس والسلطة التي أسندها إليك قبيل رحيله قد أهاجت حفيظة الكهنة وأثارت مكامن حقدهم ، فلو أنك كنت ترغبين في الحكم وتأييد نفوذك وعظمتك لوجب عليك أن تحطمي قوتهم ونفوذهم . وإنني لأقترح عليك طريقة للحكم هي نفس الطريقة التي تبعها الأطلنطيون أجدادنا وكانوا يفخرون بها ونفذها جودع ملك السومريين العظيم . فبهذه الطريقة وحدها تجمعين بين يديك ويدي نينوس زمام السلطة العليا .

وهنا صمت المجوسي كمن يستجمع شتات أفكاره . لقد خيل إليّ أن عالماً من الذكريات والأفكار والأعمال الجليلة يتخبط في دماغه . ثم إن الناظر إليه كان يحكم لأول وهلة بأنه من سلالة أولئك الجبابرة العتاة الذين اشتهروا بقيادة الرجال وأنه الكائن الذي اختارته العزة

الالهية للقيام بجلائل الأعمال وتنفيذها بحكمة وحنكة .
وصحت به مسترجية :
ـ إننى أتوسل إليك أن تتابع .
فاستطرد : .
ـ أنت تعلمين أن فئة من سلالة الاطلنطيين نزحت ، بعد كارثة الفيضان التى منيت بها جزرهم وأغرقتها ، إلى آسيا بعد أن عبرت القارة الافريقية . وأعقب الاطلنطيون المجوس الكلدانيين . أولئك الذين ورثنا عنهم عاداتهم وتقاليدهم .
كنت متأثرة من أقواله مأخوذة برقيق عباراته وتعبيره . فتوسلت إليه بلهفة وشغف :
ـ أتمم . أتمم . . .
ـ كانوا ، فيما سلف ، يعدون ملوك الاطلنطيين من كبار الملهمين فكانوا يمثلون « السيد الأعظم » ويتمتعون منذ ولادتهم بسلطته الالهية وعصمتها عن الخطأ . وأنت تفهمين يا سميراميس أن القيام بمثل هذا العبء الثقيل ،

عبء الارث الالهى ، يتطلب نفساً طاهرة كريمة أبية . وقد ظهر لى أنك مخلوق فذ لأن دماغك هو الذى يقود خطواتك . ولأنك ، إلى الآن ، لم تكونى هدفاً للتجارب ولم تهوى إلى حمأة الشهوة . فاذا أنت استطعت أن تسحق نفوذهم وتحطمى غيرتهم وهم يبتذون أموال الشعب ويرتعون فى بحبوحة الانانية الدنيئة . لو كان فى مقدورك أن تواجهى هذه المسؤولية الكبيرة الناشئة عن تنازع السلطة وتقيمى على أنقاضها المتلاشية الزائلة حكم الفرد بغير ما رقابة أو تفتيش . فانك إذ ذاك تضمنين لنفسك النفوذ المطلق وتصبحين الملكة العظيمة الخالدة التى يتنبأ القدر بمجيئها وجلالها . لسوف تكون مكانتك فوق البشر وتكونين أهلا لذلك الدم الذى يسيل فى عروقك ... فهل أنت مستعدة للانتصاح بنصحى فيخشاك فرعون مصر وتنهار أمامك ممالك الهند وتجعلين من شعبك أعظم وأسمى شعوب الأرض طراً ؟

فأجبته على الفور بعزيمة وبغير ما تردد :

— إننى مستعدة

فقال بصوت وقور رصين :

— حسناً .

وبعد أن تباحثنا طويلا قررت أن أصدر تشريعاً جديداً أضيفه إلى القوانين الحكيمة التى سنها ، منذ أجيال خلت ، عمورابى العظيم وجاء فيها ضمناً : « لا تهرق دماء قريبك ولا تقرب زوجة غيرك ولا تسرق ثوب جارك »

تشريع سميراميس
ملكة وكاهنة أشور

المادة الأولى

أنا سميراميس ، ابنة الالهة دركيتو وزوجة الملك نينوس وملكة أشور ، أنا التى قلدها الملك والعزة الالهية جميع السلطات الزمنية والعلوية ، أنا الملكة الكاهنة ، والقائدة المدربة المطلعة على أساليب الحكمة وسر الأسرار ، إننى آمر بتنفيذ هذا القانون ليقف شعبى على شريعتى ويعلم مدى نفوذى وسلطتى .

المادة الثانية

أنا سميراميس . سأحمل منذ الساعة ، لقب الكاهنة العظمى وأتولى مهام منصبها . وإنه لما ينقص من سلطتى ويحط من مكانتى أن أشرك قوة أخرى معى . فمنذ هذا اليوم يأتمر مجمع الكهنة بارادتى ويستمد منى سلطته وينفذ أوامرى الملكية والدينية .

المادة الثالثة

إن الملكة الكاهنة تنصح إلى شعبها أن يحاذر الأثرة ويتجنب الكبر والأنانية فهى أحط الرذائل وأشدها خطراً على النفس . وهذه الرذيلة قل أن تتجلى فى عمل شنيع يأتيه المرء أو فعلة همجية وحشية يرتكبها وإنما تظهر بمظهر خلاب داع إلى الاغراء وتنساب إلى النفس بهدوء وسكينة وتنفث فيها سمها الزعاف وتبدلها وتتحكم فيها حتى تذلها .

المادة الرابعة

إن الملكة الكاهنة ، عملا بشعور العدالة والرحمة ، تسعى إلى مداواة بؤس شعبها . وإنها لذلك تأمر بأن تحصى ثروات جميع أفراد رعيتها وتقدر مرة فى كل عشر سنين ثم توزع فيما بينهم بالقسطاس والمساواة .

المادة الخامسة

إن عظمة الأمة قائمة على الشرائع الدينية والايمان إيماناً صادقاً لا يتزعزع . فهو الأساس الذى تقوم عليه وحدة الشعب وثباته لتثمر جهوده . وهو غوث الضعيف وعضد القوى . ولذلك فان الملكة الكاهنة الالهة تأمر رعاياها بأن يؤمنوا طالما هى مؤمنة .

المادة السادسة

تسهيلا للمعاملات والتبادل بين الشعوب وإنماء لموارد المملكة تقرر الملكة الالهة أن يقوم جميع

الأشداء الأصحاء من أفراد رعيتها وعبيدها بتنفيذ المشروعات العظيمة التي يتطلبها حفر الأنهر وإعداد الطرق وتشييد المدن الجديدة وإقامة الموانى والأرصفة على شواطىء البحار التى افتتحها الملك بجيوشه ووهبها لشعبه. إنها تريد أن يحمل إلى هنا، من بلاد البخور والمر، أعز الأخشاب وأندر الرخام والمرمر وأثمن الأقمشة والعاج النقى وَالحجارة الكريمة حتى إذا ما آب الملك سيدنا وأميرنا وجد أشور غنية زاهرة

المادة السابعة

إن الملكة الكاهنة لفخورة بشجاعة رعاياها وإقدامهم. وهى تود أن تغدق عليهم نعماءها تكريماً لشجاعتهم وبسالتهم. وهى تقدر أنها إذا ما حررتهم من رق الجهل الذى يرسفون فى أغلاله تزيد فى راحتهم وهناءتهم. ولذلك فهى تدعوهم وتأمرهم بأن يميلوا إلى الفنون الجميلة الراقية كالرسم والحفر ولا سيما الموسيقى، فالملكة الالهة تقدر أن هذه الفنون هى الرابطة بين الأمور الدنيوية والالهية.

المادة الثامنة

إن الملكة الكاهنة تحث رعاياها على العمل . فهى تقدر أن الكسل والخمول يورثان الرذائل بأنواعها ولسوف توقع عليهم عقوبات صارمة إذا هم فعلوا غير ذلك لأن العمل يرفع مجد الأمة ويسعدها .

المادة التاسعة

إن الملكة الكاهنة تحرض النساء على إطاعة أزواجهن. على أن جميع رعاياها، بلا استثناء أو تمييز فى الجنس ، متساوون أمام القانون . وهى تقرر كذلك أن الأم رأس الاسرة وأن لقراراتها قوة القانون ونفوذه .

المادة العاشرة

إن الملكة الالهة تقدر عظمة اشور ومكانتها السامية. ولذلك فهى تأمر الرجال أن يذودوا عن أوطانهم كما لو كانوا يذودون عن مالهم الخاص وأن يزدروا الموت فهو مجد الأبطال وجزاؤهم الخالد .

وفيما يلي مخصصاتي الملكية

البند الأول

إن ذكاء الملكة الكاهنة وقف خاص على خدمة الارادة الالهية

البند الثاني

إن القوة والسلطة والذكاء والنبوغ من مزايا الملكة. وجميعها ممثلة في شخص الملكة الكاهنة ووقف عليها تؤتيها من تشاء من نوابها، لأن الملكة ليست إلا الآلة التي تنفذ الرغبات الالهية.

البند الثالث

وفيما عدا السلطات الزمنيـة التي تتمتع بها الملكة الكاهنة توجد مواهب أخرى هي من حقها وحدها. وبعض هذه المواهب منزل والبعض يعد من الأسرار الخفية. فاذا ما تجلت هذه المواهب للعين أخذت شكل العجائب وسميت باسمها.

البند الرابع

إن الملكة الكاهنة تستمتع بمفردها ، وبفضل العزة الالهية والسلطات العليا، بنعمة الاقناع . ولذلك فهى تضم إلى حاشيتها من سمت أخلاقهم وعلا كعبهم وبعد نظرهم ورأت فيهم صالح البلاد ونفعها

البند الخامس

إن موهبة الشفاء تتطلب شرحاً دقيقاً بعيداً عن كل لبس . فى بعض الظروف التى تريدها العزة الالهية وتكتشف الملكة الكاهنة أسرارها بفضل علمها بما وراء الغيب يمكن شفاء بعض الأمراض البدنية بمجرد اللمس . إن موهبة الشفاء تشفى أمراض العواطف إذا ما اعترف المصابون بها للملكة الكاهنة بايمان وخضوع وأبانوا لها عن حقيقة أسبابها .

البند السادس

إن لموهبة الحكمة وفضائلها ، كما لموهبة الشفاء ، وضعين ، وليس لأى امرىء فيما عدا الملكة الكاهنة أن يشيد بصحتها ويفخر بذكرها فى المعبد

البند السابع

ان الملكة الكاهنة تتمتع إلى أقصى حد بنعمة القوة ومواهبها . فقوتها الأولى تتجلى نحو نفسها فهى تقاوم عواطفها ونزعاتها لكى تطهر وتزداد مناعة وكمالا . فهناك فضائل أخرى تنقصها وهى ترغب فى الحصول عليها . وإنها ، مع اعترافها بعدم مناعتها من الأمراض البدنية ، تستطيع أن تكبح جماح نفسها وتقاوم ميولها الضعيفة كلما دعتها الحال بالقول والفعل والصلاة . وإنها تعرف دائماً كيف تسمع أقوالها إلى الجنود وجموع الشعب وتخضعهم لارادتها ، كما تستطيع أن تقاوم ميول قلبها لتزهق الباطل وفى مثل ذلك العمل منتهى القوة .

البند الثامن

إن الملكة الكاهنة تشعر بأنها تعلم ما وراء الغيب . وان الآلهة تدرأ عنها الشك فيما عساه أن يحدث فى الغد القريب . وتـكشف لها عما فيه خيرها. وتطلعها على ما فيه مصلحتها المشتركة مع مصلحة الوطن. وما يجب أن تفعله أو تتلافاه خدمة لصالحها الشخصى أو لصالح شعبها . إن موهبة الادراك تتجلى فى معرفة الأسرار الشخصية حتى لا تفرق بينها وبين معرفة الغيب ومعرفة أسرار الكائنات

البند التاسع

إن الفـكرة الأساسية فى تـكوين الشعوب ، مهما سمت وبلغت حد الـكمال : لا يمكن أن تدرك تماماً وتنفذ إلا بواسطة الأجيال المقبلة . إن الملـكة الـكاهنة وحدها معصومة عن الخطأ وكلمتها نافذة قاطعة وإن كانت على آخر رمق من الحياة .

الرؤيا الرابعة عشرة

وأمرت بنقش القانون على اسطوانات من الاجر .
فتلك هى الوسيلة الوحيدة التى كنا نملكها فى ذلك العصر النائى لتقرير إرادتنا ونشرها . وإلى الآن ـ وقد مضت أجيال عدة ـ لا تألم من ضياع هذه الوثائق لأن الخلف لا يعرف عنها إلا ما يسمعه اليوم بصوتى .
وأمرت كذلك بالمناداة بهذا القانون فى الشعب مراراً عدة .

وكنت أراقب بهمة ونشاط لا يعتورهما كلل أو ملل تنفيذ الأعمال التى أمرت بها لكى تنجز بسرعة حتى إذا ما آب نينوس من رحلته وجد طرقات جميلة عريضة وقرى خصبة يانعة وبلاد ملكنا نظيفة زاهرة. ووقفت جهودى على تحسين بابيلونيا مدينة الله وعنيت بتشييد هذه المدينة عناية خاصة ونفثت فيها روحاً من الفن الجديد. وكنت قد وضعت لهذا العمل الجليل تصميما عظيما فبدأت باقامة أسوارها وجعلتها أكثر ارتفاعا وأشد مناعة من أسوار نينيف بحيث كان يسهل على سبع مركبات من مركبات الحصار أن تمر عليها جنباً إلى جنب بينما كانت أسوار نينيف لا تتسع لغير ثلاثة منها.

وكانت المدينة قائمة على شكل اهرام وعدد أسوارها سبعة، بعدد أسوار نينيف، وهى تمثل السيارات السبعة وتحمل ألوانها.

وكان القصر الملكى الجميل يضم المعبد بين جدرانه. لأننى مذ أن أسندت إلى نفسى جميع السلطات الكهنوتية

أمرت بأن تقام الحفلات الدينية التى أرأسها فى معبدى لا فى معبد الكهنة القديم . وحليت واجهة قصرى وبرجيه بصور ملونة تمثل الرجال والحيوانات بأحجامها الطبيعية . وأقمت على أحد البرجين تمثالا عظيما يمثلنى على صهوة جوادى وأنا أقذف فهداً بمزراق . وأقمت على البرج الثانى تمثالا للملك نينوس يمثله فارساً يقتل أسداً بطعنة من سنانه .

وإلى جانب الحدائق المعلقة التى أنشأتها عند سفح القصر كنت قد أقمت بداخله حدائق غناء تغطى سماءها الستائر المتحركة لتدرأ عنى أعاصير الجو وأشعة الشمس اللاذعة .

وكانت سبائك الذهب واللجين وقطع العاج والأخشاب النفيسة مكدسة فى قصرى مخبوءة عن الأنظار تحت أعتاب من المرمر والرخام الأبيض . وجعلت من جلود السباع والفهود طنافس وثيرة وملأت أركان الحجرات بالوسائد المصنوعة من النسج الملون الثمين .

وكانت المقاعد بشكل إيوان نقشت أرجلها نقشاً دقيقاً بديعاً يمثل رؤوس الحيوانات . ووضعت إلى جانب كل ايوان مقاعد كبيرة مرتفعة جداً خصت بى وبالملك دون غيرنا . وكانت الحجرات مبنية بوضع مسدس هندسى وهى متساوية الجدران فى العرض والارتفاع . وأوقفت خلف كل عرش ، وكلها من الذهب الخالص ، عبيداً من السودان يحملون أوراق النخيل ليروحوا بها عن نفسى ويدفعوا عنى وطأة القيظ الشديد . وكانت أزهار الورود والياسمين والخطمية متناثرة على درجات العرش فيتصاعد شذاها ويملأ الأرجاء .

ووقفت فرقة من عازفى الناى وغيرها من الآلات الموسيقية المعروفة لنا خلف ستر من الدمقس لتطربنى بألحان شجية . وكانت أعواد الصندل والبخور والأزهار المجففة المعطرة تحترق فى مباخر ذهبية ليلا ونهاراً فتملأ أنحاء القصر بندها وعبيرها .

وكنت أحب الراحة وأميل إلى الحرية المطلقة في جميع حركاتي ولذلك فأنني اعتدت - في غير أيام الحفلات - أن أرتدي لباساً من نسج الصوف الأبيض الناعم الخفيف ولا أحلي جيدي بشيء من الجواهر النفيسة . وكذلك كنت لا أرتاح إلى مداعبات وصيفاتي من نساء البلاط لأنها تترك في نفسي أثراً وضيعاً ولا أسمح إلا بدعابة واحدة ، هي الدعابة الناشئة عن الأفكار اللطيفة البريئة . ولطالما نصحت إلى تمارو، أمتي المفضلة ، بأن الحب برق خلب يضيء وينطفيء فلا يبقى بعد ذلك إلا العقل الراجح لأنه يتلألأ ويتغلب على جميع الدسائس النسائية ولكنها كانت تهز رأسها، وعيناها الكبيرتان السوداوان كعيني غزال شارد كانتا مستقرتين بحدة على مافروداك ضابط حرسي . لشد ما كانت هذه الفتاة تتألم من خيانة عشيقها. فتحاشيت نصحها لأنها لم تعد تصغي إلى نصحي ، فكانت حياة هذه المسكينة سلسلة مستمرة من الابتسامات والدموع .

ويجدر بى أن أذكر ما كان يتحلى به ما فروداك من جمال الوجه وبهاء الطلعة فقد كان يمثل جمال العنصر الاشورى على حقيقته فهو بهى رائع . له حاجبان كثيفتان تقترنان ببعضهما عند أعلى الأنف وتحليان عينين كحيلتين بلون الابنوس الأسود . ولأنفه الأقنى فتحتان واسعتان تضطربان وتضطرمان بنيران الشهوة . ولحيته السوداء معقودة الأطراف عند أعلى الصدر بشريط من الحرير كما هى العادة عند الأشوريين. وشفتاه، وهما بلون الخطمية القانية، تفتران عن ابتسامة ساحرة خلابة وتتكشفان عن أسنان كاللؤلؤ الناصع . وهامته الطويلة ، التى تحمل هذا الرأس الجميل على منكبين عريضين قويين، كانت تجعل منه رجلا كامل الرجولة . وإلى جانب ذلك فان شجاعته كانت مضرب الأمثال. ولكنه مع الأسف الشديد ، كان قاصر الذهن محدود الذكاء . وهذا ما حملنى على أن أسائل نفسى كيف استطاع هذا المخلوق أن يتسلط على قلوب كثيرات من النساء ويستبى لبهن بسحره . ولكننى لاحظت ، فى

كثير من المرارة والأسى ، أن المرأة لا تبحث فى الحب إلا عن جمال الوجه وقوة البنية . فشعرت إذ ذاك بالغبطة لأننى أنعم بميزة قل أن تنعم بمثلها امرأة . فكنت لا أخضع مثلهن لتلك الغريزة وإن كانت تعد عاملا جوهريا فى كيان العنصر النسائى ، وتدفع بالمرأة ، بغير ما تفكير أو روية ، إلى أحضان الرجل ما دام هذا الرجل يتمثل لها كاملا فتيا .

ولشد ما كنت أعجب بوجه نيرتيكس ، ذلك الوجه الطافح بأنوار العبقرية ومضاء العزيمة ، فحاجباه الكثيفتان كانتا تستران عينين بارزتين تتوقدان بنيران الاستقامة والوفاء وسداد الرأى والذكاء . ولون بشرته ، وهو أشبه بلون العنبر الخام ، كان يكسب نظراته حدة ومضاء . وجبهته العريضة وهى مقر أفكاره الصائبة وآرائه الحكيمة ، كانت تتوج وجهه بهالة من الهيبة والوقار . ولحيته التى اشتعلت بكثير من الشعور البيضاء كانت مسترسلة على صدره غير معقودة الأطراف فتزيد منظره عظمة وجلالا .

فكل ما كان بادياً منه للعين ينبىء بما كان عليه هذا الرجل العجيب من قوة الأسود وشجاعة الأبطال وحنكة الشيوخ وصفاء ذهن الحكماء .

وكنت قدعهدت إليه بادارة المالية الملكية ، وشيدت له خصيصاً مرصداً كبيراً يستطيع أن يقرأ منه فى لوحة السماء ما هو مكتوب على صفحة القدر ، ويدون ما يقف عليه ويكتشفه من الحوادث السارة والضارة التى يتوقع حدوثها فى أمتى أو ينكب بها شعبى . فتلك المهمة السامية كانت تتطلب منه جهوداً جبارة لدرء خطر العوامل الضارة. واستدراك الحوادث السارة ونشر فضائلها .

وكان نيرتيكس يؤمن إيماناً راسخاً بأن للارادة القوية الثابتة تأثيراً عظيما على الكائنات وإن المرء ليستطيع إذا ما تحلى بمثل هذه الارادة أن يخفف من وطأة القضاء أو يحول دون وقوعه .

وهكذا كان المجوسى يحدد الفصول للشؤون الزراعية متمشياً مع سير الكواكب . ويداوى المرضى مراعياً

ما ينبىء به طالع كل منهم . وكانت مواهبى فى شفاء الأمراض تساعده كثيراً على قضاء هذه المهمة الشاقة . ولذلك فان أفراد رعيتى ممن كانوا ينتصحون بنصح هذا العالم الفلكى كانوا يشفون من علاتهم ويبرأون من أمراضهم. فكانوا لا يأتون عملا أو يقررون أمراً هاماً إلا عملا بالارشادات التى توحى بها الأجرام التى ولدوا تحتها .

ولم تكن هذه الطريقة لتحول دون ما هو واجب نحو الارادة البشرية التى كان يعمل نيرتيكس على تربيتها فى الشعب ، وتهذيبها إلى أبعد مدى . فكان يعد الرجال مسئولين عن نتيجة أعمالهم ما دامت النصائح تسدى إليهم بإيحاء سماوى وتساعدهم على القيام بها.

وكان الكلدانى لا يأخذ بعوامل القدر ومظاهرها ولا يحكم بخيرها أو شرها . فقد تكون تلك العوامل ملائمة أو تكون مضادة فهذا التعليل موقوف على طريقة تفسيرها أو تطبيقها على الحياة .

وكان ينصح إلى تلاميذه أن يحاذروا ميولهم الشهوانية ويقهروها لأنها تعمى أبصارهم وتطمس معالم الحكمة فيهم وتهدد توازن أخلاقهم .

وكان نيرتيكس يعنى عناية خاصة بدراســـة تأثير الكواكب ونتائجها . ويجتهد فى أن يضع للأفراد من عامة الشعب نظاماً يسيرون عليه فى معيشتهم. ولكنه كان يتحاشى التنويه بما يتوقع حدوثه فى المستقبل لأنه يعلم جيداً أن الزهو البشرى يأبى الاذعان لما يوعز به إليه ويتوهم أن سلطانه أقوى من سلطان الحوادث فيصدها .

وكان يحتم انتقال تلاميذه إلى جانب سرر المرضى لسماع اعترافهم والوقوف على هفواتهم لأنه يقدر أن هذه الهفوات هى السبب المباشر فى وجود الأمراض . وكان كذلك شديد الوطأة على الكذب ونكث العهود ويعمل على حمل الأشوريين على الاعتقاد بأن الألم والمرض والموت ليست إلا قصاصاً عادلا . وهكذا تمكن نيرتيكس من بعث الخوف إلى قلوب الشعب لاحترام العزة الالهية

والأخذ بأن الأرواح ، بعد الموت ، تهيم فى مكان مظلم مكفهر يعلوه الرغام . وهذا هو السبب فى أن طول العمر كان أشهى وأحب ما يتمناه الأشوريون، فكانوا يسجدون ويصيحون ضارعين : « أى مردوخ ! إله النور ، وشمس الصباح ، وشمس الربيع . امنحنا عمراً طويلا » على أن نيرتيكس كان يؤكد لهم أن الأرواح الطاهرة لا يمكن أن يحكم عليها بالهيام وأنها تستطيع أن ترتاح وتطمئن فى الحياة الأخرى .

وكان الكلدانى يتألم لعجزه دون اطلاع رعاياى على هذه الحقيقة الساطعة المغرية التى جاء ببيناتها ونشرها على الأرض ، بعد أجيال عدة ، نبى من أنبياء الله .

الرؤيا الخامسة عشرة

وكنت قد أخذت بنصيحة نيرتيكس وأنذرت الكهنة بأن دولتهم قد دالت وسلطتهم قد امحت وزالت، وإن كانوا قد وقفوا على هذا القرار من التشريع الذى أصدرته ونشرته.

وما إن كدت أضرب هيئتهم العظيمة المخيفة تلك الضربة القاضية على مرآى ومسمع من الشعب حتى التمس رئيسهم نير بال الأذن بالمثول بين يدى والتحدث إلى.

فاذنت له وأنا أسائل نفسى عما عساه أن يطلب منى وهو يعلم جد العلم أن أوامرى نافذة وأنها لا ترد ولا تنقض.

وتصنعت عند مقابلته وجهاً غامضاً يتعذر عليه أن يطالع منه اختلاجات نفسى أو يدرك ما استتر وراء ملامحه. وكنت أتوجس أن الهجوم سوف يكون عنيفاً وأننى سوف أرى أمامى رجلا مكلوماً محطماً ثائراً. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فقد تصنع نيربال مثلى وجهاً جامداً كتوماً، ولولا جفونه التى كانت ترتعش وتضرب الهواء بشدة بين الفينة والفينة لما أدركت أن مراجل الحقد والغيظ تغلى بين جوانحه وأنه يناضل نضالا عنيفاً ليحول دون انفجارها ويحافظ على هدوئه وسكينته. وكانت أخاديد وجهه وأوداجه المنتفخة تزيد سحنته بشاعة وتجهماً. ولم تفارق ابتسامته الساخرة شفتيه طوال حديثنا.

وكان نيربال، بطبيعة تكوينه، قصير القامة بدين الجسم. فلما مثل بين يدى أخذ فى الاستخذاء والاستكانة،

وصار يتقوس وينكمش على نفسه حتى أصبح يشابه كرة من اللحم ضخمة مستديرة كان فى مقدورى أن أن أسحقها بضربة واحدة من صولجانى الثقيل .

وبدأ يتكلم من أنفه بصوت متهدج ضعيف مضطرب :

— أى سميراميس العظيمة . إننى أعترف لك بأنك ابنة آلهة وسليلة الالهة . فما يصدر عنك لا يمكن أن يكون إلا وليد الحكمة والروية . فلا تنظرى إلىّ إذن نظرتك إلى رجل متمرد، لأن الماثل أمامك ، الضارع إلى حكمتك وحنكتك ، رجل حريص على مجدك عامل على رفعة أشور وعظمتها ، خاضع لارادة الالهة وسلطتها . لقد جمعت بين يديك القوتين السلطة الملكية والسلطة الدينية . وأنت تعلمين أن تلك المهمة شاقة مضنية ينوء تحت عبئها فرد واحد . على أننى أعلم الناس ببسالتك، وأخبرهم بصلابتك، وأعجبهم بنشاطك وقدرتك. وانى لأعترف لك أيتها الملكة بأننى لا أمتاز عليك إلا بميزة صغيرة وضئيلة بل أسلم بأنها ضئيلة للغاية : وهى

معرفة نفسية شعبك . فبالرغم من عظمة المجد الذى وصلت إليه ورفعة الجاه الذى تتمتعين به . وبالرغم من أبهة هذا الملك العظيم وجلاله هل تستطيعين ، أو بمعنى أوضح ، هل يتسنى لك أن تتغلغلى إلى أدمغة الأشوريين وتجوسى خلال قلوبهم بقدر ما استطعت أن أفعله أنا وأتباعى إلى اليوم ؟ يقيناً لا . فهذا العمل هو غايتنا الوحيدة ورسالتنا الكبرى وليس فيه ، كما ترين ، شىء من الالوهية . إلا أن جهودنا التى اصطبغت إلى اليوم بصبغة روحية وطبعت بطابع إلهى تقوم الآن مقام الوحى المقدس . إنا ليسهل علينا ، لوفرة عددنا وتشعبنا ، أن نساب بخفة ورشاقة إلى مختلف أوساط الشعب ونؤثر على أفراده . فنعلل الوضيع بالرفعة، والشقى بالراحة والهناء ، والسعيد بالعز والجاه . أما أنت . أيتها الملكة الالهة فانك ، بالرغم من سلطانك وجبروتك ، لا تستطيعين أن تتسلطى أو تؤثرى على عقول الأشوريين بأسرهم .

أى سميراميس العظيمة ! إنى مع احترامى العظيم وإجلالى لشخصك الالهى ، أجثو اليوم عند قدميك وأضرع إليك وأقول لك بتواضع وخشوع إننى أعترف لك بمواهبك الممتازة المقدسة التى حبتك بها العزة الالهية . وأتنازل لك بغير ما تذمر عن قوتى وسلطتى . على أننى أعتقد أن الحكمة قد تقضى عليك بأن تستعينى بهيئة الكهنة لتعميم فكرتك ونشر تعاليمك وتعزيز سلطتك .

وهنا تغيرت لهجته ورقت نغمة صوته وأخذت جفونه تضرب الهواء وزادت حركات وجهه تجهماً . ثم استطرد حديثه :

ـــ حسبك أن تكونى الملكة العظيمة التى تقدسها أشور وتخشاها آسيا ويعجب بها العالم بأسره . وحسبك أيضاً أن تكون لك قوة ومناعة فى كثير من الأشكال والأوضاع . فانك مع ذلك واحدة غير مجزأة ولا متشعبة فلا يمكنك ، والحالة هذه ، أن تكونى فى كل مكان فتحكمين بين الشعب وتديرين دقة الحكم وتعاقبين على

الاساءة والشر وتجزين على الاحسان والخير . إن بغيتى الوحيدة هى أن أسهل عليك مهمتك وأنشر دعايتك وأعزز سلطانك . وهذا ما حدانى أن أتقدم اليك بخدماتى الوضيعة مع جميع كهنة أشور . فهم ، عملا برغبتى ، سيلبون نداءك ويعملون بأشارتك كما لو كانوا يلبون إشارتى وندائى . وإنك لتسلمين معى ، أيتها الملكة الجليلة ، أن مهمة الكاهن مهمة شاقة كثيرة الحركة والمتاعب . فنحن الذين نعد الأعشاب الشافية ونقطرها . ونحن الذين ننحنى باخلاص على سرر المرضى والمحتضرين . ونحن الذين نعلم الشعب النظم ونحمله على الطاعة وننقل اليه وحى الآلهة ليؤمن . ونعزيه فى مصائبه وأحزانه ونحضه على احترام الشرائع والخضوع للقوانين . وإننا نمتاز عليك بميزة صغيرة للغاية حقيقة . إننا نقرب الرجال فى كل يوم وفى كل آونة . ونعاشرهم عن كثب ونقف على دخيلة أفكارهم . فى حين أنك أيتها الملكة المؤلهة . . .

وكنت قد أصغيت الى خطبة نيربال الخبيثة لأعلم الى أى حد يتمادى هذا الأحمق فى مهارته وريائه . فوقفت على طريقة أعماله وتفكيره .

وقد سولت لى نفسى ، فى غضون حديثه ، كما دفعتنى الغواية الى أن ألقى به الى الجلاد ليبعده عن طريقى ويقذف به الى هوة الأبدية . ولكن نيرتيكس كان يعرف مالنيربال من النفوذ على شعبى ولا ينكر تأثيره فيهم فحذرنى من إثارة فتنة أهلية وألح علىّ أن أكظم غيظى وألا أستسلم لأية نزعة من نزعات نفسى الثائرة . وهذا ماحدابى أن أخاطب هذا الغر الأحمق بلهجة هادئة بعد أن قاومت جهدى تيار كراهيتى لهذا الرجل وما كان يبعثه فى نفسى من عوامل الأزدراء والاشمئزاز .

— إن انضواءك تحت لوائى وانضمامك إلى أتباعى يتركان فى نفسى أثراً عميقاً أيها الحبر الجليل . وإنى أعترف بالخدمات الجليلة التى تقدمها طائفتك للدولة ولرعيتى . وحاشاى أن أحط من قدرك كطبيب ومهذب ومؤاس

للانسانية فى عذابها وآلامها . إن وساطتك وتدخلك أنت وكهنتك أمر يسلم به ويخضع له الجهلاء الأغبياء . ولكن على قدر ارتفاع درجات السلم الاجتماعى تقل الحاجة الى رسالتك . أما نحن فاننا لانجهل بأية وسيلة تستغلون بساطة الشعب وسلامة نيته فتجعلون منه فريسة لمطامعكم . وإنا لانجهل أيضاً الى أى حـــد ترهقونه وتصهرونه بمظاهركم الخداعة وريائكم الكاذب . إنى لأسلم معك بجميع ماجاء على لسانك وأوافق على جميع خطتك حاشا نقطة واحدة . أنت تنسى ، أو أنك تتعمد النسيان ، بأنى أمتاز عليك وعلى طغمة كهنتك بميزة لانزاع فيها . فأنا رسولةقد اختارتها الالهة لأحمل رسالتها وأنقل الوحى الذى يهبط علىّ بسرعة وبغير ماوساطة . أما أنت فتلجأ الى المظاهر الخداعة والزلفى الكاذبة لعلك تستطيع أن تنتزع شيئادن خفايا القدر وأسراره . وإنك لتسلم معى بأن الالهة كثيراً ماتظل صامتة فلا تلين الى التماسك وابتهالاتك ولا تجيب على ندائك وتوسلاتك .

أما أنا فليس عليّ إلا أن أتذرع بسلطتي الالهية لأقف على الحقيقة وأطلع على شرائع العزة الالهية. فعد آمناً الى عقر دارك واترك للملكة الكاهنة، ابنة الالهة دركيتو، عناء الحكم وأعباءه ومهمة التسلط على عقول وضمائر وقلوب رعيتها وأتباعها . فلو أنك كنت مضلعاً بقسط من التاريخ، لاسيما تاريخ أجدادي، إذن لعلمت أن السلطة الوراثية يضعف تأثيرها إذا هي قسمت أو وزعت، وأن ملوك الأطلنطيين الذين أنحدر من صلبهم كانوا يحكمون بفضل الارادة الالهية، ويستمدون سلطتهم من العزة الالهية .

وكان نيربال قد وقف على قدميه عاجزاً عن مقاومة نظراتي النافذة الحادة بنظراته الزائغة . ومد ذراعه اليمنى دلالة على خضوعه ثم رفع ذراعيه الى السماء وصاح بصوت حاول أن يودع فيه لهجة النبوءة وروح الوحي والايحاء :

ـــ أي سميراميس العظيمة . إن الآلهة تتكلم بلسانك. وإنني أقدر العناية السماوية التي ترعاك وتكتنفك كدخان البخور المتصاعد . لقد أدركت في هذه اللحظة فقط مقدار سلطتك المطلقة وأعترف بعجزي عن منازعتك فيها أو الجدال في صحتها .

ثم انحنى مرة أخرى حتى مست رأسه أعتاب العرش وتناول قدمي اليمنى ووضعها على نحره دلالة على طاعته وخضوعه .

فقلت له :

ـــ حذار نيربال . فأنت تمهر صك ولائك بخاتمك !

الرؤيا السادسة عشرة

وكنت قد شيدت مرصداً فلكياً فسيحاً فوق رابية مرتفعة إلى جانب القصر . وكنت أصعد إلى هذا المرصد عن طريق ممهدة وملتفة حول هذا الصرح العظيم فى شىء من الانحدار البسيط بحيث أصل إلى قمته بغير مشقة أو عناء . ورصفت هذه الطريق - التى أطلقت عليها اسم طريق السماء - برمال نقلتها خصيصاً من صحراء مصر . لأن نيرتيكس كان يعتقد بأن هذه الأرض مقدسة ويبالغ

فى اجلالها تذكاراً لأجدادنا الأطلنطيين الذين وطئوا أديمها بأقدامهم . وكان قد أضاف إلى هذه الرمال مزيجاً ، من اكتشافه ، فجمد وتصلب واندمج بأرض الطريق.

وخلط المزيج بذرات ناعمة من أحجار الطلق اللامعة، فاذا ما جنت الظلمة وسطعت الأنوار المنبعثة من النجوم وانعكست أشعتها على هذه الذرات لمعت ببريق جميل فيصبح منظر الطريق أشبه بنهر من اللجين .

وكان المرصد حلزونى الشكل أملس كالقمع . وفى وسط قمته ثغرة مفتوحة على السماء . فلا ينبثق كوكب حتى تنساب أشعته من تلك الثغرة برقة تدل على مهارة فنية ومقدرة فائقة فى هندسة البناء وفن تشييد الأرصاد الفلكية . ثم تنعكس تلك الأشعة على مرآة مبسوطة فى وسط الحجرة تحت الثغرة فيهتدى الناظر إليها إلى مواقع الأبراج وتسهل عليه قراءة ما هو مكتوب على لوحة السماء . وكان الكهنة ، عند ما يسطع أول كوكب وتنعكس أشعته أمامهم على المرآة ، يهللون تبركا وترتفع

أصواتهم بالأناشيد والألحان المقدسة ويملأون المباخر النحاسية بالأعشاب المعطرة فتملأ نكهتها وعرفها أرجاء المكان ويتصاعد دخانها نحو السماء ويسترحمون العزة الالهية ويستدرون شفقتها وحنانها .

ولا تكاد الشمس تصل إلى قبة الفلك حتى كانت تقابلها من داخل هذا البناء الشاهق ألحان موسيقية شجية . وكانت قبة المرصد من الداخل تمثل سماء صافية الأديم بجميع أبراجها وأجرامها . وكانت هذه الأبراج والأجرام تدار وتحرك بواسطة آلة ميكانيكية خاصة تبعاً لسير الكواكب وتطوراتها .

وكنت قد نزعت عن الكهنة ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات الخاصة ببعض الطقوس الدينية لأنهم أبوا التسليم بما أدخلته على دياناتهم القديمة وعاداتهم الموروثة من التعديل الذى جمع السلطات كلها بيد واحدة .

على أنني كبحت جماحهم بشدة أقرب إلى القسوة ، وأخمدت ثورتهم وعصيانهم بغير ما شفقة ولا رحمة ،

فأذعنوا لارادتى وتظاهروا بالخضوع لسلطتى ومع ذلك لم أستطع أن أمنعهم عن دس الدسائس واثارة الفتن بين الشعب من وراء الحجاب . لقد كان الرياء سلاحاً ماضياً يطعنوننى به والنميمة وسيلة قوية يوجهونها إلى بغية الايقاع بى . وكان نيربال الرأس المدبر واليد المحركة لهذه المؤامرات المتتابعة المستمرة .

وكنت قد أعقبت طفلا منذ عدة شهور أسميته نينياس . وكان سرورى عظيما كلما فكرت فى سعادة أبيه عند رؤيته وملاقاة ولى عهده . وحدث ما كنت أتوقعه وأخشاه . فان الملك قد اندفع وراء غريزته وميوله الحربية وحبه للكسب ورغبته فى توسيع نطاق ملكه . فمرت الأيام وتعاقبت الأشهر وربما تلتها شهور عدة أخرى قبل أن يؤوب من حملته . وكان يبعث إلى بكثير من الرسل يحملون إلى رسائله . وكانت كلها تفيض بعبارات الحب والثقة والاعجاب .

لكم كنت أود أن يتفق يوم افتتاح المرصد مع عودة

الملك ظافراً ! ولكن حفلة الشمس السنوية كانت تقترب وكان لا بد من اقامتها فهى ترمز إلى عودة الربيع . وهذا ما حملنى على الامتثال واقامة هذه الحفلة فى غيبته .

وكانت شعائرنا الدينية القائمة على مبادىء الطبيعة ومظاهرها تحوى كثيراً من الرموز المؤثرة . فاعتقادنا الراسخ بتأثير النجوم على كوكبنا الأرضى كان يوحى إلينا بأننا تحت إشرافها ورقابتها . ثم إننا كنا نؤمن بأن كل مخلوق يحمل فى راحتيه خطوطاً رمزية ذات معان خفية تدل دلالة واضحة على تأثير الكواكب عليه وتشير بجلاء ووضوح إلى الدور الذى تلعبه هذه الكواكب فى حياتنا . وأن كل مخلوق عند ولادته ، على حد اعتقاد المجوس ، كان فى رعاية كوكب أو عدة كواكب سيارة وأن هذه الكواكب تدير شؤونه وتنظم معيشته وتؤثر على أخلاقه وتهديه إلى السبيل الذى يجب عليه أن ينهجه.

وكان واجباً على كل فرد من أفراد الرعية أن يرتدى ، فى يوم الاحتفال العظيم بشماش ، ثوباً فوق ملابسه وأن

يكون هذا الثوب بلون البرج السماوى الذى يكلؤه برعايته . فاذا قدر أن يكون فى رعاية عدة أبراج وجب عليهأن يرمز اليها بجميع الألوان التى تمثلها . وكان تلاميذ الشمس يرتدون ثوباً أصفر . وتلاميذ القمر يلبسون رداء أبيض . وأتباع الكواكب الأخرى يضعون غير هذه الألوان فكل لون كان يشير الى معنى خاص .

ففى صبيحة يوم من أيام الربيع الزاهرة صفت سماؤه وحمى وطيس شمسه كان الناظر يرى جموع الكهنة يرتدون الملابس الصفراء إشارة الى لون ملكة الكواكب ويرتلون الأناشيد المقدسة وهم يصعدون فى الطريق المنحدرة بتؤدة وبطء . ويليهم كهنة السر الأعظم وهم عباد الشمس الذين لاتدركهم أشعتها ولايرى وجههم أحد إلا بداخل المعبد . وكانت تتقدمهم فرقة من عازفى الناى وضاربى الصاجات تحلى رؤوسهم أكاليل من أزهار الخطمية والياسمين الأصفر . وعند سفح الصرح صفت شجيرات أزهار الشمس وقد اشرأبت أغصانها نحو قرص

هذا الكوكب الساطع . وخلف هذه الشجيرات وضعت أصص أزهار المستحية .

وكان نيرتيكس يسير الى جانبي بعظمة ووقار ممسكاً بيدى وعلى رأسه تاج كهنوتى تحيط به هالة من الشموس الذهبية . وكان يرتدى ثوباً أصفر موشى بالخيوط الذهبية وعلى صدره لوحة من ذلك المعدن النفيس مطعمة بأحجار الزمرد والزبرجد الأصفر فكانت تتلألأ تحت أشعة الشمس فيخيل أنها جمرة ملتهبة . وكان وجهه محتجباً وراء شبكة من الشعور الذهبية .

وكللت رأسي بتاج من الذهب يمثل شمساً تناثرت أشعتها فأصبحت أشبه بهالة تحيط بوجهى. واحطت عنق بخيوط ذهبية طويلة ترمز الى كوكب النور والحياة . ووضعت على صدرى رأس سبع من الذهب للاشارة الى القوة والبطش ، وكان ثوبى من الحرير الذهبي وفى كل من يدى قفاز من الذهب فكنت أشبه بدمية متحركة جمعت بين جلال الملكة وعظمة الكاهنة . وكانت هيئتى تدل على الثبات والجمود .

وعندما أدركنا قمة الصرح بعد سير طويل بطىء .
جلست على عرش من الذهب . وكانت الشمس فى هذه اللحظة قد استقرت فى سمت الرأس . فارتفعت الأصوات بالأناشيد وعلت ابتهالات الكهنة ووقف نيرتيكس ومد ذراعيه شاخصاً إلى السماء وأنشد ترتيل الشمس بصوت جهورى رنان :

« أى شماش ! أيها الكوكب الملك . أعجوبة القوة والدقة . »
« خالق الجمال وعزاء الانسانية ورسول السرور ورمز »
« الرحمة الالهية وسبب وجودنا على هذه الأرض . أنت »
« القوة التناسلية العجيبة والمحسن العظيم وسيد العالم الذى »
« منحته لنا الآلهة لتكون الأرض وينضج القمح ويعقب »
« نور النهار ظلمة الليل . يا من تداعب وتحرق وتعمل »
« على نشر الرفاهية والهناء على هذه الأرض . يامن »
« لا يدركه أحد ولا تستطيع عين أن تحدق فيه . يامن »
« يضرب للرجال مثال الخصب بنطفته القوية . وتتكون من »
« تلك النطفة عناصر النشوء والتطور وتخلق المجد والنور . »
« تنازل أيها الكوكب القوى الحنون وسلطان البطش والقوة »
« وهب حصاداً يانعاً لمدينة اشور التى اصطفتيها لنفسك »
« حيث يمجد اسمك وتبجل شريعتك . أى شماش ! »

وأحاط التلاميذ بقاعدة المرصد ورددوا هذا الابتهال الحار، وبدأ اللحن بنغمة هادئة موزونة كألحان الموتى ثم ازداد قوة وحرارة مع الاحتفاظ برقته وبهجته. فكانت هذه الأصوات المتباينة المتعددة تعبر عن الأيمان الراسخ والرغبة الصادقة التى ترتفع من أعماق الصدور وتخترق الفضاء فى طريقها إلى السماء.

وكأن كوكب الشمس قد استجاب هذا الدعاء فازداد نوره وسطعت أشعته ببريق عجيب مجهول. وبدت السماء كقرص من الذهب اللامع الوهاج.

الرؤيا السابعة عشرة

وانتهت الحفلة .

وما كدت أعود إلى القصر حتى نزعت ثيابى الفاخرة لأرتدى قميصى الابيض . وبعدأن صرفت العبيد ، توجهت مع نيرتيكس ـ وكان يرتدى مثلى قميصاً أبيض ـ نحو نفق يؤدى إلى الناووس المقدس وكان قد توسل إلى ألا أطأه بقدمى قبل أن يتم بناؤه فأذعنت لرغبته .

وكنت أجهل ما سوف أشاهده . وسرنا فى النفق المظلم الطويل صامتين لا ينبس أحدنا ببنت شفة .

وخيل إلىّ أن هذه الطريق لا نهاية لها ، وساورنى شيء من القلق ، وأخذ قلبي يدق وينتفض بشدة . وشعرت ، أنا المرأة الباسلة الجسور مثال الهدوء والطمأنينة ، أننى قد تأثرت وانقبض صدرى . لقد كنت أثق بنيرتيكس ثقة عمياء . ومع ذلك فان المجهول كان يثير التردد والشك في ذهنى بالرغم من صفائه وحكمته .

ووصلنا فى النهاية إلى غايتنا . ورأيت شيئاً يلمع فى وسط الظلمة فاذا هو باب كبير من النحاس كان نور النهار ينصب عليه من ثغرة مفتوحة فى سماء النفق المظلم . ولمس المجوسى لولبا خفياً فغاص الباب فى جوف الأرض ببطء وسكون .

ووقفت عند المدخل مشدوهة حائرة .

ورأيت فى صدر الناووس نوراً يسطع بحدة ويتأجج كالنيران الملتهبة فأضاء فجأة وجه مرشدى ووجهى .

وظهر لى المجوسى هادئاً كأنه إله من البرونز ، مجهولا كالقدر .

وتقدمت بضع خطوات وبدأت أتبين ما بداخل الناووس . فكانت جدرانه وحواجزه متصلة بالسقف ومغطاة بالذهب . وفى صدر الناووس شاهدت جرماً : كان هذا الجرم عبارة عن حجر أسود مكعب الشكل أثرت فيه عاديات الدهر والزمن. وهو مركز على ثلاث دعائم من الذهب الخالص . وعلى الحجر شمعدان عظيم له سبعة أفرع من الأبريز ترسل أضواء حادة . وعند ما رفعت نظرى إلى قمة العقد وقعت عيناى على «كروب» . له ستة أجنحة عليه رسوم بألوان زاهية وبارزة فى الصدر . وكانت الأجنحة تغطى الملاك بحيث لا يظهر منه غير رأسه ويديه وساقيه .

فلم أتردد لحظة ، ولم أصغ لغير داعى نفسى وسجدت بغتة أمام الحجر الأسود الذى كان يسحرنى .

حينئذ دوى فى وسط هذا الفضاء العظيم صوت المجوسى الجهورى كأنه طبل من النحاس :

ـــ أي سميراميس ، ملـكة اشور ! ان فطنتك تخدمك اليوم خدمة جليلة . على أن إدراكك لهذا الشيء المقدس ليس إلا نتيجة لذكرى حياة سابقة لأجيال خلت . لقد عرفت هذا الحجر المقدس لأنك كنت محتكة به فيما سلف ، منذ عهد بعيد . . .

واستطرد بعد صمت :

ـــ وتتابعت الأيام . وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وتغير شكل الطبيعة وتطورت أحوالها ، وامتدت مياه البحار فابتلعت فى جوفها بلاداً بسكانها ومدنياتها . . . عندما ابتلع الطوفان العظيم مملكة الاطلنطيد بحث الهاربون ، بدافع الغريزة وحب الحياة وإرادة سامية عليا ، عن مأوى يلجأون إليه ويحتمون به . وهكذا هجر جماعة من الواقفين على السر الأعظم وطنهم البائد . وأموا هذا المكان بعد أن ذاقوا الامرين . وكانوا يحملون معهم هذا الحجر الاسود الذى سجدت الآن أمامه وما زال يحمل آثار الاجيال الغابرة . وإرادة

الله . الله العظيم . الله الواحد الأحد . الله العادل الذى عجزت أصنام الأشوريين والمصريين دون تحطيمه وعزله عن عرشه . وكان هذا الحجر ملكا للملك اشور العظيم عمور ابى المحترم واضع القانون الذى أجريت تعديله وتحسينه . وكان يعرف قيمة هذا الحجر وعظمته الالهية ويحافظ عليه بعناية تفوق حد الغيرة . وحدث يوما أن ثار الكهنة فى عهده ـ لأنهم من عنصر ملتهب ميال للاشتعال بسرعة ـ واختفى الحجر ثم عثرت عليه أيدى أحد البطارقة الاتقياء . وأنت يا ابنة اسرائيل قد رأيت هذا الحجر فى تلك الساعة واقتربت منه باحترام وخشوع . هذا الحجر المقدس إن هو إلا صاعقة ألقت بها السماء إلى أجدادنا الأطلنطيين. منذ نيف وسبعة أو ثمانية آلاف سنة كأنذار ودعوة لا تحادهم وانضوائهم تحت لواء الله. ولقد كان الكهنة ملوك الاطلنطيين يقسمون على هذا الحجر يمين الاخلاص والخضوع للخالق . ويلجأون إليه إذا ما طلبوا الوحى والالهام . وشيدوا لأجله معبدهم

العظيم . وكانو يستلهمون منه طهر المشاعر وصفاء الفكر والفطنة : هـــذا الحجر محط السحر وإنى اذ أهبه لك ياسميراميس فأننى أهبك عطية جزيـلة نادرة بل أثمن ما فى العالم بأسره . وإننى أهبه لك أيتها الملـكة لأننى أعتقد أنك أهل لامتلاكه . ففى كل مرة تلجأين إليه تشعرين بتجدد فى قواك وأفـكارك . فتخرجين من لدنه وقـد تضاعفت قوتك وعظمت حكمتك . على أنك ياسميراميس . ملـكة اشور ، إذا أردت الاحتفاظ بالقوة والسلطة التى وهبها الله لك . إذا كنت ترغبين فى زيادة نفوذك . فأننى أكرر لك بأن من واجبك أن تحذرى رذيلتك التى تقف لك بالمرصاد وتتحين الفرصة للايقاع بك وربما حطمتك فى وقت قريب . احتفظى بايمانك بالله الواحد سليما . فانه عظيم قدير على كل شىء وإنه لا يتزيا بزى بشرى فتؤثر فيه الظواهر الدنيوية والمظاهر الـكاذبة . ذلك الاله الذى يجب أن يحمله كل مخلوق عاقل وكائن مفـكر بين طيات قلبه كعزاء وسلوى .

ثم غمس المجوسى أصابعه فى ماء مقدس فى إناء من المرمر عند قاعدة الشمعدان ورسم على جبينى الاشارة السرية « سفازتيكا » ثم قال لى بصوت رقيق عذب لم أعهده فيه ولم اسمعه من قبل :

ــ قفى فأنت مختارة المولى القدير عز وجل .

ثم حملنى على رفع رأسى واستطرد :

ــ شاهدى هذا «الكروب» الهائل المجنح بستة أجنحة والذى يرعاك بحمايتـــه . إنه رمز الانسانية السامية . ولكى ندرك عظمته وطهره وجب علينا أن نسيطر ، فى كل ساعة وفى كل لحظة ، على غريزتنا لكى نرقى ونتطور ونصل إلى الكمال . فما الكروب إلا رسل الله !

الرؤيا الثامنة عشرة

كنت لم أزل متأثرة مضطربة وكأنني مأخوذة بالرؤيا اللذيذة التي مثلها أمام نظري علم نيرتيكس وحكمته. وكان يخيل إليّ أن روحي قدسمت الى أرفع ذرى الفكر وأنها خاضت في أطهر عناصر الأثير. وأنني سوف أجد مشقة كبيرة في الرجوع الى الأرض والاحتكاك بعناصرها كما خيل إلى أن بشرتي التي يتكون منها رداء جسمي الخارجي، تثقل عليّ ويضايقني حملها. على أنه لا يوجد

مايطهر النفس أكثر من معرفة الحقيقة فهى وحدها تبهر النظر ببريقها الخاطف وقد تعمى أنظار من ضعفت عقيدتهم وقل إيمانهم من أبناء البشر العـاديين . وبقدر ما كنت أسمو بمخيلتى وأفكارى الى الطبقات السماوية العليا كان يزداد اعتقادى بأن الحقيقة ليست فى متناول جميع الـكائنات ولايدركها غير المختارين . أى أولئك الذين استطاعوا ، بآلامهم المطهرة ، وإرادتهم المتحفزة الوثابة . الوصول اليها ونيلها . وكان الحـكيم نيرتيكس يؤكد أن السواد الأعظم من الشعب يجب أن يظل رازحاً تحت أعباء الجهل وأنه يجب الاحتفاظ به فى دائرة اعتداله والوسط الذى يوجد فيه . ومن رأيه أن تعليم الشعب تعليما ناقصـاً لا يثمر ولا يؤدى إلا إلى إيعاز أفـكار كاذبة إلى ذهنه وحمله على تعليل نفســـه بآمال خداعة لا يمـكن تحقيقها . وهذا ما يحمل الاضطراب والقلق إلى هذه النفوس الهادئة التى كانت وما زالت تعيش على الفطرة . وكان يخيل إليه أنه لمن الصعب على هذه الكائنات

أن تفهم وتقدر الأسباب التى تحمل الزعماء على إتيان هذا العمل دون سواه. أما الأفراد القلائل الذين يخرجون من طبقة الشعب ويمتازون بجلائل الأعمال فيدركون العلياء، فأولئك هم الأولياء المتازون المختارون. إن سعادة الشعب نسبية مع نتيجة جهله. وهذا الجهل يستثنى المسؤلية وينفيها. وهذا ما يرتاح إليه الشعب عادة. فكلما ازدادت مدارك المرء وكثرت أفكاره زاد نمو ضميره وأرهقته مشاغل أفكاره وتفكيره.

فيأيتها الحقيقة المقدسة التى يمكن تضحية الحياة فى سبيلها ولا يدركها غير المختارين ولا يفهمها غير المطلعين على سر الأسرار. أيتها الحقيقة. أيتها الكلمة السامية التى جاهدت فى سبيلها طوال حياتى وبحثت عنها وقضيت العمر فى سبيل الوصول إليها وتألمت لأجلها. أيتها الحقيقة. يا من يتخيلك صغار العقول والجبناء وضعاف الأيمان الذين يفزعون من النور ووطأته. فكرة مجردة زائفة. أيتها الحقيقة الالهية. إننى لأعترف فى كثير من الحزن

أنني ونيرتيكس مرغمان على إذاعة تعاليمك فى الخفاء مع إحاطتها بسياج من الكتمان لنحافظ على مضاء قوتك وأنوار عظمتك . . .

كنت وحدى . فى الحديقة التى شدتها فى وسط قصرى مضطجعة فى ملل وخمول على فراش من الأغصان .وكانت نسمة عليلة بليلة تعبث بأغصان النخيل وأزهار المستحية . وكانت أكاليل الخطمية تحلى رأسى وصدرى . وعروق الياسمين تغطى ساقى حتى ركبتى . وكنت استمتع ، بفضل طبيعة الازدواج التى امتزت بها ، بشعور لذيذ لوجودى بين الأزهار ومن الأزهار . فقد خيل إلى أن الازهار والورود أصبحت جزءا متمماً لكيانى .

وكانت طرقات حديقتى مرصوفة بتراب الذهب . والحجارة الكريمة بحالتها الطبيعية كانت تمزج ألوانها الحادة بألوان الخضرة والأزهار فتزيد المنظر روعة وجمالا . والمياه تتساقط من بين الصخور كأنها شلالات هادئة بطيئة

فيحدث خريرها أنغاماً شجية ساحرة وتملأ نفسى اغتباطا وحبورا لأنها رمز الأبدية الخالدة .

وبغتة سمعت خطوات تسير على الأعتاب فكان لا يمكن أن يكون القادم الا نيرتيكس فهو وحده كان يتمتع بحرية المثول بين يدى واقلاق راحتى فى عزلتى . فلم أدر رأسى لثقتى من أن القادم كان هو . ووقف القادم ولم تعد تسمع خطواته، ولما لم أر المجوسى يمثل أمامى دهشت ورفعت عينى . . .

ورأيت مافروداك ضابط حرسي جاثيا أمامى فى هيئة متواضعة خاشعة .

ـــ لئن جئت الآن فى طلب منحة أو منة فعجل فى القول فأنا اليوم هادئة وبى استعداد للتجاوز عن جرأتك . إذ أى سبب آخر يمكن أن يحملك على المثول بين يدى بمثل هذه الجرأة وبغير دعوة منى ؟

وكان مافروداك يلمس الارض بجبينه ويداه ممدودتان إلى الأمام وهما ترتعشان . فرفع رأسه بدون أن

يوجه نظره إلى وتكلم بصـــوت خافت متقطع :

ــ أيتها الملكة ! إن هى الامنة حقا ما جئت أطلبها . . .

وتوقف عن الحديث فصحت به محتدة :

ــ زدنى افصاحاً فقد عيل صبرى

فتمتم مافروداك :

ــ أيتها الملكة . أنا عالم بأنى أعيش الآن آخر ساعة من ساعات حياتى . ولكن ما دمت لم تفهمى اللغة التى خاطبتك بها عيناى إلى الآن ، وهى اللغة التى يتكلم بها قلبى . وما دمت لم تفهمى أنه يستحيل على المرء أن يعيش فى ظلك ويبقى جامداً فلا يهواك . ما دمت لم تشعرى بذلك كله يا سميراميس العظيمة وملكة اشور وكاهنتها والالهة بمولدها وجمالها . إذن فاعلمى يا سميراميس أن حبك أصلى فؤادى ناراً وحسرة . فانا أهواك . اجل وانني ليسرنى أن ألقى حتفى بيدك .

وكنت قد انتصبت بقفزة واحدة وانتزعت الخنجر الذى أخبئه فى صدرى ولا يتركنى لحظة

وكان مافروداك لم يزل جاثياً فرفع قامته وحدق بأنظاره فى وجهى ومد ذراعيه وصاح وهو يكشف عن صدره :

ـ إضربى !

وكانت أمارات الشهوة قد تجلت على محياه وأدركت بالرغم من غضبى أنه صادق فى قوله .

فسقطت يدى جامدة بعد أن كانت مرفوعة لتطعن . وكنت قد لاحظت ، خلال الأغصان ، وجه أمتى تمارو متقلصاً من شدة الألم فأشفقت على يأسها .

ـ أنت لا تستحق شرف الموت من يدى ، أيها الكلب الحقير ، ولسوف تموت بالسوط كأحقر العبيد .

وتناولت صفارة العاج ورفعتها إلى شفتى وأمرت الخدم الذين لبوا ندائى أن يوقعوا بمافروداك عقاب السوط الحقير أمامى .

ـ لسوف تستمتع عيناى بعذابك وذلك. ولسوف يعلم أتباعى ورعيتى أن من يقدم على النظر إلى الملكة

نظرة خبيثة خائنة حاق به الويل ونال منا شرّ العقاب .

وكان العبيد قد قبضوا على مافروداك فاستسلم لهم صاغراً راضخاً ولم يقاوم . وكشف عن صدره وظهره وهو يقول :

— ألا إننى لأتحمل الأهانة وأنواع التعذيب فى سبيل غرامى لك أيتها الملكة العظيمة والمرأة السامية .

وكان يعانى صنوف العذاب ويتحمل الآلام المبرحة ، ولكنه مع ذلك ظل يتغنى بفضائلى ويمتدح جمالى ويؤكد لى حبه .

فكان يخاطبنى بجمل متقطعة يتخللها أنين الألم :

— لقد كنت أعلم أن الموت سوف يتبع اعترافى ولكن شعورى كان يخنقنى ، فكنت أموت رويداً رويداً على نار هادئة بطيئة ، وأذوب شيئاً فشيئاً كما تذوب الشمعة . ألا إننى لأبارك الموت الذى ينقذنى ، والذى سمح لى ، ولو مرة فى حياتى ، أن أرى نظراتك الألهية تشتبك

بنظراتى . . . إننى أحبك . أحبك . . . هل تسمعين أيتها الملكة ؟ إننى أحبك . . .

واختنق صوته فى زفرة أخيرة ثم سكت ولم يعد يتكلم.

فلما رأيته جثة هامدة منكمشة على الأرض بلا حراك أوقفت نشاط عبيدى وانصرفت والازدراء يطفر من ملامح وجهى . وكنت لم أغرب عن الحديقة بعد حتى كانت تمارو قد انسابت بخفة إلى جانب حبيبها وحاولت أن تنعشه .

ولجأت إلى حجرتى وأنا أشعر بأن رجلا قد احتقرنى وأذلنى . أن كائناً حقيراً عادياً قد جسر على مخاطبة امرأة فى مكانتى ومقامى ووجه عبارات الحب إلى ملكة ذات بطش وسلطان مثلى وسليلة الآلهة وابنة آلهة . وكنت قد انتويت استدعاء الجندى الشيخ الذى أوصاه بى نينوس خصيصاً وجعلنى تحت حراسته لأبلغه أمر عزل مافروداك من منصبه فاذا بى أرى نيرتيكس يقترب منى قلقاً بخطوات هادئة بطيئة ثم يخاطبنى بصوته الوقور :

ـ أى سميراميس ! لقدجئت إليك لأننى أعلم ثورة نفسك . أنت تتـألمين أكثر مما تدل عليـه ملامحك لأن كبرياءك قد جرحت . فقد تجاسر مخلوق على النظر إلى الملـكة ! ألا إنك لن تستطيعى أن تضعى نفسك فى موضع غيرك، مع أن العدالة تقضى بأن تحكمى بما هم عليه فى الواقع وليس بما تريدين أن يكونوا عليه .

فصحت به محتدة :

ـ نيرتيكس !

ـ إنه لمن حقى كما تعلمين ، أن أخاطبك بمثل هـذه اللهجة . فلا تنسى الرابطة التى تربطنى بك فى هذه الحياة . فما جئتك الآن إلا لأهدىء من ثائرة غضبك ولأقول لك إن الحلم خليق بملـكة عظيمة . إن مافروداك شاب حديث السن وأنت باهرة السفور . وما هو إلا مخلوق فان ، وهو كجميع الرجال عرضة للشهوة ونزوتها . وقد توهم هذا الغر المسكين أنه ما دام يحبك ، فان من واجبك أن تجيبى على نداء قلبه بمثل ما يناديك به

ثم استطرد بصوت رزين كما لو كان يخاطب نفسه :

ـ هذا هو السر العظيم . وهذا السر يخرج على كل قياس وقد اصطدمت به حكمتى دائما أبداً . إننى لم استطع أن أعلل لنفسى لماذا لا يجيب الحب على نداء الحب . ولا لأى سبب تستولى مثل هذه العاطفة القوية الحادة ـ التى تظهر فجأة ويتأجج أوراها وتحطم بنى البشر ـ على قلب امرىء ودماغه وتسرى فى عروقه ودمائه وتتحكم فى كيانه وحياته ، ولا تجد صداها فى فؤاد من تحب .

وبعد أن صمت المجوسى قليلا وهو ينظر إلى تابع حديثه :

ـ إن مافروداك فى الحقيقة لم يمثل إلا دوره كرجل فوضع تحت قدميك فؤاده المعذب بآلام الشهوة . لقد كان يعلم نتيجة مغامرته وأنه سوف يعرض بحياته للموت . وكفى بذلك دليلا على النبل فى إقدامه وتهوره . وأية امرأة، إلاك ، كان لا بد لها أن تتأثر . إننى لسعيد بأن تكونى معصومة عن الحب الدنيوى، ومع ذلك فاننى أود أن أرى

قلبك النسائى أقل ظمأ وحفيظة وأكثر شفقة وأوسع رحمـــة .

ــ أنت تنسى يانيرتيكس أنى لو لم أشفق على حزن تمارو لضحيت بمافروداك بيدى ؟

ــ أو ما كنت تريدين أن تتشفى من إذلاله وإطالة أمد احتضاره ؟

فسكت . وكأن الـكلدانى فى هـذه اللحظة قد حل محل ضميرى لأنه كشف لى عن شعور قلبى على صحته بما فيـه من فضـائل ونقائص . فتمثلت لى كما تعكس المرآة ملامح الوجه بما فيه من أخاديد ومحاسن .

واستطرد بحنق وبغير ما شفقة :

ــ هل أستطيع أن أغادر هذا المـكان مطمئنا ؟ وهل تعدينى بأن مافروداك يظل محتفظا بمنصبـــه بالقرب منك ؟ . . .

ولزمت صمتاً مكابراً حرونا .

فاستطرد نيرتيكس بثبات :

ــ إنى اقرأ ما يدور فى خلدك أيتها المرأة الظامئة . فأنت مضطربة وتحاولين أن تكظمى غيظك وحفيظتك. سأحاول أن أروح عنك فأمثل أمام عينيك رؤيا من رؤى الماضى البعيد .

وكنت قد بدأت أشعر بثقل فى جميع أعضائى واضطربت الأشياء أمام عينى ثم تلاشت . فلم أعد ملكة . ورأيت نفسى قروية وضيعة أسكن بلدة طمست معالمها الأيام منذ أجيال خلت . كنت فقيرة ومع ذلك كنت مرحة طروبا أحرس قطيعاً من الأغنام . وكنت أجهل كل شىء فى الحياة ولكننى كنت مطلعة على أسرار السماء، فكانت أنظارى تتجه نحوها فأجثو ضارعة وأبتهل بحرارة وأصلى بلغة غريبة مجهولة . وبغتة رأيت شعلة من النور تنفصل من القبة الزرقاء . وأخذت هذه الشعلة تتجسم شيئا فشيئا حتى غدت بشكل كتلة من النار المتأججة . وما كادت هذه الكتلة التى اخترقت الفضاء تستقر بجانبى حتى التفت حولى جموع من المخلوقات

ليس بينهم من يشبه الآشوريين في هذا العصر . وانطفأت الشعلة عند وصولها إلى الأرض . وشاهدت عيناى قطعة من الحجر المكلس . وهى هبة أرسلتها السماء على غير انتظار . وبعد أن صاح القوم وهللوا حملنى بعضهم إلى قصر الملك كما يحمل الفاتح الظافر وعنى الآخرون بنقل قطعة الحجر إلى حيث نقلت أنا .

وسمع الملك هتاف شعبه فظهر عند أعلى الدرج المؤدى إلى قصره وقابلت نظراتى نظراته . . . « نيرتيكس ، نيرتيكس . هذا الملك كان أنت ! . . . »

وتوقفت عن الحديث وأنا ألهث . فصاح بى المجوسى بصوته القوى آمراً :

— استمرى فى حديثك .

— وضع الحجر فى حفلة رسمية بداخل المعبد . وتزوجنى الكاهن الملك وأجلسنى على عرشه . .

وتلاشت الرؤيا وعدت إلى الحقيقة .

وساد الصمت بيننا وقتاً طويلا . وكان صمتاً رهيباً تسوده ذكريات المـاضى . وبدأ بيرتيـكس الحديث بصوت طبيعى .

ــ إنه لمن السعادة أن يكون هـذا الملك أقل كبراً وصلفاً منك وإلا لمـا قاسمتيه مضجعه ولا سلطته . . . والآن ماذا عساك أن تقررى بشأن مافروداك ؟ . . .

كنت منهوكة محطمة . فأجبتـه بصوت خافت يكاد لا يسمع :

ــ سيحتفظ مافروداك بمنصبه وسيظل ضابطـاً لحرسى .

الرؤيا التاسعة عشرة

لشد ما كنت أتألم من شدة الحر اللاذع الذى كان يجتاح مملكتى فى شهور الصيف . كنت أشعر بأن قواى العقلية تضمحل و تتلاشى تحت تأثير وطأته، فكنت أبذل جهداً عنيفاً مضنياً لادارة شؤون بلادى بمثل نفوذي وسلطتى فى فصل الشتاء ، فقد كانت الرياح المحرقة تهب فيسمع لها صفير شديد عن مدى بعيد مؤذن بقرب مرورها فيزداد عذابى وخمولى،إذ ليس أفظع ولا أرهب

من ريح السموم تهب من الصحراء فتجتاح كل ما تصادفه وتحطم ما يعترض طريقها وتنتزع الجداول والأنهر من مجراها فتفيض مياهها ، وتخرب القرى وتبتلع الرجال والحيوانات تحت أنقاضها . يا لها من عدو شرير عات وجلاد قاس متطوع لأبادة الأشجار والنباتات فلا تكاد تهب عليها حتى تئن بين أنيابها أنين الثكلى وتزفر زفرات المحتضر . وكان الرغام الذى تكتسحه فى طريقها يرتفع إلى عنان السماء فينشر وشاح الموت القاتم على أنحاء الطبيعة المعذبة فتنتحب وتبكى .

وطالما لاحظت فى كثير من الحزن والألم إلى أى حد تتأثر المخلوقات ، مهما كانت درجة فطنتها وذكائها ، من تقلبات الجو . فارادتى ونشاطى كانا يخضعان لعوامل الطقس . إن نفوسنا ، مهما تعالت وسمت على الشقاء البشرى ، تظل على الرغم منا خاضعة للمحيط الذى تعيش فيه . إن الأرض التى نسير عليها تلعب دوراً خطيراً أفعل أثراً فينا من أخلاقنا الموروثة . وإننا نتأثر ، إلى أبعد مدى ،

بالوسط الذى نقيم فيه . وذلك ما كنت ألاحظه فى كل يوم على الأسرى الذين كانوا يعملون فى المناطق المرتفعة والجبال العالية فانهم بمجرد انحدارهم إلى المدينة واندماجهم فى أوساطنا ينسون عاداتهم الخشنة ونشاطهم الفطرى ويستسلمون إلى خمول سكان السهول والمدن المنبسطة تحت أشعة الشمس المحرقة .

ولقد عانيت الأمرين من وطأة الشمس نيفا وبضع سنوات فعزمت على إنشاء مصيف ألجأ إليه وأجد فى جوه الرطب ونسيمه العليل ما يساعدنى على الاحتفاظ بصفاء ذهنى ومرونته . وكنت إذا هجرت مدينة بابيلونيا ركنت إلى نيرتيكس وتركت له أمر العناية بشؤون الدولة وأنا مطمئنة مرتاحة إلى شرف ضميره ونزاهته وحنكته .

وشيدت مدينة وحصنا على ضفاف بحيرة « ارزيسا » أسميتها « شاميرا مكرت »

واستحضرت ، خصيصا لهذا الغرض ، اثنين واربعين الف عاملا فشيدوا بحجارة الصخور المسلحة بالرمل والجير

هضبة فسيحة يبلغ ارتفاعها نيفا ومائة متراً، وأحطت المدينة بأسوار سميكة ضخمة سدت منافذها بأبواب من النحاس فكانت هذه الأبواب تلمع نهاراً كأنها الشموس وتثير فضول وإعجاب المشاهدين. وأقمت على هذه الهضبة قصوراً بديعة جمعت فيها أثمن الأسلاب التي ظفرنا بها في فتوحاتنا. وأعز ما تستطيع آسيا وأفريقيا أن تقدماه من العطايا الثمينة الفاخرة.

وكانت شاميرامكرت مدينة العز والرفاهية والجاه والعظمة. فكنت ألجأ إليها لأستمتع فيها بقسط من الراحة: تلك الراحة المنتجة التي كنت أستمدها كلما عزمت على وضع تصميمات لأعمال جديدة وإعداد مشروعات عظيمة.

ولكي أحول دون الوصول إلى تلك القصور العجيبة التي كانت تحلي السهل المرتفع، حفرت في جوف الصخور كهوفا عميقة تخترقها مياه البحيرات الصافية. فكنت ألجأ إلى ظل هذه الكهوف الخفية لأنعم بطقس جميل وأخلو

إلى نفسي بعيدة عن ملازمة حاشيتي المزعجه .

وطالما غبطت حظ أوضع نساء بلاطى ووصيفاتى ، فقد كن ينعمن بأشهى الأمانى وأحبها : الاستقلال . . . أما أنا فقد كنت دائماً أبداً ، سواء فى نينيف أو فى بابيلونيا ، أمة خاضعة لمكانتى وأسيرة مستعبدة لمراسيم سلطتى . فما أعظم الثمن الذى ندفعه فى سبيل ألقابنا والتضحية التى نقدمها على هياكل مجدنا ! ألا إن الحسد الذى تثيره فى القلوب ليتحول أحيانا إلى عطف وميل لو أنهم كانوا يعلمون إلى أى حد نرزح تحت أعباء واجبنا المقدس .

وكانت القصور مشيدة بالحجارة المختلفة الألوان . والمياه اللازمة لرى الحدائق الغناء تسيل فى قنوات ضيقة . وأقمت فى وسط الحدائق غابة ملأتها بعمد الرخام الجميلة وضعت على كل عمود منها تحفة من التحف الحربية الجميلة التى استولينا عليها فى مقاتلة الأعداء . ونقشت حواجز المغاور بمختلف النقوش والرسوم التى تشيد بأعمالى وتخلد ذكراى . لقد عبثت يد الدهر بكل شىء ولكنها عجزت دون هذه

النقوش فهى ماثلة إلى الآن كتمثال حى يشير إلى مهارة حفارى عصرى وفنهم الجميل، فقد كانت لهؤلاء الحفارين طريقة خاصة لأذابة الحجارة كما يذاب الشمع ونقشها بما يسمونه الآن بالخط المسمارى .

وظلت أحدى هذه النقوش قائمة إلى ما بعد موتى بعدة أجيال وقد استطاع أحد الغزاة الفاتحين العظام ـ وهو الأسكندر الأكبر ـ أن يقرأ ما كنت قد أمليته بنفسى على أحد الحفارين ونقشه أمامى :

« لقد ألبستنى الطبيعة ثوب امرأة ولكن أعمالى تجعلنى »
« صنو الرجال . لقد حكمت مملكة نينوس التى كانت تمتد »
« غرباً الى نهر هينامان ، وجنوباً الى بلاد البخور والمسك »
« وشمالا الى بلاد ساكس والسوجديين . لم تقع عين »
« أشورى على البحر قبل مجيئى . أما أنا فقد شاهدت أربعة »
« بحار لم يستطع أن يصل اليها مخلوق لبعد شقتها . »
« لقد أذللت الأنهر لأرادتى وجعلتها تمر حيث شاءت »
« ارادتى . وانما أردت أن تمر من الجهات التى رأيت »
« فائدة فى مرورها منها . فكانت الأرض القاحلة »
« تتحول وتخصب تحت رى مياهها . وقد شيدت »

« قلاعا منيعة وحصوناً لا تقهر . واخترقت الصخور »
« الصلدة بالحديد والنار . وفتحت الطرق فى بطون الجبال »
« وأقمت طرقاً أخرى لمركباتى فى مقاطعات لم تطأها »
« الوحوش الضارية . ولقد كنت أجد فىوسط مشاغلى »
« الجمة وقتاً لأستمتع بملذاتى وأتمتع بمشاهدة أصدقائى »

وكنت قليلة الميل إلى الحب لأن أنانيتى وحكمتى كانتا تحميانى من الاندفاع فى تيار تلك العاطفة التى كنت أعتبرها محطة محقرة ما دامت تفقد الشعور حتى عند كبار الأذكياء . وتحط من الأخلاق الكريمة . وقدأردت أن أحافظ على توازنى وإرادتى لتنفيذ المشروعات الجليلة التى كانت تشغل كل أفكارى . إن من لا يشعر ، أو من لا تشعر ، بآلام المسئوليةونشوةالانتصار ومتعة الحكم ، لن يستطيع أن يقدر إلى أى مدى تتسلط هذه العواطف على المشاعر والعقل وتتحكم فيها وتمحو منها كل أثر إلا مما توحى به . . .

وحاشاى أن أدعى العصمة والكمال . فأنا أعترف صراحة وبكل اخلاص بأنى لم أخل من بعض النقائص

الصغيرة وإن كانت لا تعد من المعايب المشينة .

وكنت أميل ميلا يقرب من الضعف والشهوة إلى الحجارة الكريمة واقتنائها ومشاهدتها والتمتع بمختلف ألوانها وأنواعها . فكنت لذلك أضجع بشغف على إيوان وثير وأمكث ردحا طويلا شاخصة إلى تلك الحجارة محدقة فى ألوانها المتموجة الصافية وأستنشق شذى العطور والمر والبخور المتصاعد من صناديق ذهبية بديعة الصنع كان عبيدى الأشداء من النوبيين السود يحملونها إلى على أذرعهم القوية ويضعونها إلى جانب مضجعى فوق أكداس من الوسائد وينصرفون .

فاذا ما انهزم الهزيع الأخير من الليل واصطبغ الأفق بحمرة الشفق وبرزت الشمس من حجابها وذر قرنها لجأت إلى الكهف أتفيأ ظلاله وأستنشق عليل نسماته . وهناك ، حيث أكون بعيدة عن أعين الرقباء من أفراد حاشيتى ، بمعزل عن أتباعى وحشمى ، كنت أطلق لنفسى العنان واستسلم لغريزتى فاعبث بالحجارة الكريمة

المكدسة أمامي وأمتع طرفي بدقة صنعها وبريقها الخلاب، وكانت مياه البحيرة ـ وهي أشبه بفيروزة كبيرة الحجم صافية الأديم ـ تسيل تحت قدمي هادئة مطمئنة فيسمع لها خرير عــــذب يرتفع بين أرجاء الكهف فيحدث أنغاماً رقيقة شجية أخف من النسيم إذا سرى . وكنت أرتاح إلى البرودة المنبعثة من تلك الحجارة فأقلبها بين أناملي وأستنشق شذى العطور المتصاعد من أكياسها فأثمل بنشوة ندها وعبيرها . ثم أضعها على جبيني وأحلي بها عنقي وجيدي وأستر بها صــــدري العاري وأملأ أصابعي بالخواتم من مختلف الاشكال والأحجام فكان احتكاك هذه الحجارة ببعضها ثم حفيفها ببشرتي يحدث في نفسي نشوة أشبه بالذهول . وما كنت مع ذلك شهوانية كغيري من النساء، وما جئت يوماً أمراً فريا، لأن الحب لم يستأثر بمشــــاعري ولم يخضع قلبي الصلف المتكبر لأحكامه وسلطانه، فكان رأسي وحده ينعم بهذه المسرات

والافراح الغريبة لأنها كانت تحمل إلى نفسى نوعاً من الراحة يعقبه هدوء عجيب لذيذ .

وعادت بى الذكرى إلى أقوال المجوسى وتعاليمه فهو الذى كان قد علمنى أن الحجارة الكريمة ليست إلا شظايا أجسام تساقطت على الأرض من الكواكب المجاورة لكوكبنا . وهدانى إلى معرفة مزايا وخصائص كل منها : فالامتيست الوديعة كانت تملأ نفسى غبطة لأنها تعبر عن الصفاء والهدوء . والزمردة الشفافة تحمل إلىّ الأمل . والياقوتة الزرقاء العجيبة ترسل إلى قلبى الوحى والالهام . والياقوتة الحمراء بلون الدم تساعد على انماء النشاط وتجدد القوى . والزمردة المائية تحمل بين ألوانها شفوف المحيط وعواصفه الزاخرة . وكانت الأنوار إذا لعبت ببعض حجارة الياقوت الناصعة أظهرتها بشكل نجم مسدس الأركان فيخيل إلى أنها ترعانى وتحمينى . وكنت أشعر بشىء من الحذر من الفيروز وهو حجر الحب بأسمى معانيه لأن لونه كان يسحرنى ولكن كثافته كانت تقلقنى

وتهيج أشجانى . . . أما إنها كانت تخفى تحت ظاهرها الوديع أحلام الحب وأوهامه ؟ . . . أما الذهب ـ ذلك المعدن الملكى النفيس ـ فكان لا يجب أن تلمسه غير أيدى الملوك لأنه يحمل فى طياته مزايا الطهر والجلال .

وكنت أدين بشريعة الجمال إلى حد التصوف . فكنت أتحمس إلى أبعد حد إذا وقع نظرى على قطعة فنية أو تمثال بديع النقش جميل الصنع .

وكنت قد سمعت بمحاسن وجه « آرا الجميل » ملك أرمينيا الفتى . لقد كان وجهه جميلا إلى حد كانوا يتوهمون أنه إله نزل على الأرض ليحكم بين الرجال .

وكنت لا أقيم بعيداً عن مقاطعة أرمينيا الصغيرة التى تركها له جنودى بأمرمنى عند ما فتحت بلاده وأخضعت مملكته وكثيراً ما أرسلت فى طلبه ودعوته إلى الحضور لمقابلتى وأنا أؤكد له إنه سوف يرحب به كصديق ويكون بيننا ضيفا مقدسا . ولكن آرا الجميل لم يلب طلبى ولم يحضر أبداً .

فعانيت لأجله الفكر . فتركت اللين جانباً وملت إلى التهديد ، فأجابنى بأننى لن أراه إلا فى طليعة جيشه وعلى رأس جنوده على أتم الأهبـة للدفاع عن وطنه والاستشهاد فى سبيل بلاده .

ولم تنجح مساعىّ ولم تفلح وعودى وتهديدى . فدهشت وجرحت فى كبريائى من إباء هذا الملك الصغير ورفضه .

وسرت إليه على رأس حملة قوية لا لغاية إلا للاستيلاء على شخص آرا حيا . واشتبك القتال بيننا .

وكان آرا الجميل يعرض بنفسه لسهام جنودى بجسارة وجنون مدفوعاً إلى ذلك بشرف نفسه وجرأته . حتى لقد خيل إلى أنه يبحث عن الموت ويسعى وراءه فى جنون الحماسة والأقدام

وحاصره رجالى وضيقوا الخناق عليه وعلى جيشه . فكان الملك ومن معه من الأرمن الشجعان محاطين بحلقة

من الحديد كانت تضيق شيئاً فشيئاً كلما سقط رجاله فى حومة الوغى .

وكان واقفاً على عربته فى وسط جنوده وقفة الأسد المصور يستحثهم ويقاتل إلى جانبهم . فكان طهر ملامحه وجماله وبياض بشرته وطلاقة محياه الغض الجميل الذى يطفر منه ماء الشباب ونضرته ، وشعوره الطويلة المسترسلة على كتفيه ، وبدنه العارى إلى أسفل صدره دلالة على احتقاره للخطر ، وجهوده الجبارة التى كان يبذلها فتقوس جسمه وتزيده رهبة ، كل هذه العوامل تجمعت فى هذا الشاب الغض الأهاب وجعلت من آرا الجميل مخلوقاً عجيباً قدّ من الفولاذ . وكان صوته يدوى فى الفضاء فيعلو على قعقعة السلاح . وسقط كل من حوله حتى كاد يكون وحيداً فى وسط الأموات والجرحى . فكان يخيل إلىّ أنه يتحدى القضاء ويؤخر فى ساعة الهزيمة . لم يكن مخلوقاً عادياً أو رجلا ولكنه كان إلهاً تمثل أمامى فى صورة البشر .

لقد كان إعجابى به عظيما فلم أتمالك نفسى وهدأت من شوكة رجالى ووقفت رحى القتال حتى يتسنى لى أن أمتع نظرى برؤية هذا الملك الصغير

وكانت الشمس تجنح إلى الغروب وتسير بسرعة نحو مقرها وراء الأفق ولا يلبث المنظر الجميل الذى كنت أتمتع به أن يزول ويختفى . وفهمت بأنه كان لابد من تعجيل النهاية وضرب الضربة الحاسمة . فاقتربت بعزيمة من عربته وأنا أتحدى النبال التى كان جنود الأرمن يصوبونها إليه ويرموننى بها. وكانت فهدتى كت سان تشق لى طريقاً وهى تقفز هائجة تمزق بأنيابها من يقع بين مخالبها أو يقف فى وجهها . وذعرت طيورى وارتفعت فى الجو إلى علو شاهق ووقفت ترقب متى تستطيع أن تهبط من جديد لتتوج جبينى ، ولم يبق منها إلا يمامتى المخلصة فأنها لم تتركنى وانكمشت على كتفى وأخفت رأسها تحت جناحها معتزمة مشاطرتى حظى .

وكنت قد وصلت بالقرب من عـدوى الشجاع لأستطيع أن أخاطبه وصحت به :

ـــ أى آرا الشريف ، لو أنك كنت تثق بكلمتى وتركن إلى كرمى وشهامتى . لو كنت تشفق على الذين يموتون فى سبيلك فمد لى يدك وصافحنى . لسوف تنزل منى منزلة الضيف الكريم لامنزلة الأسير وإننى أقسم لك بأن أحترم شعبك وأنك ستظل قائماً على حكمه .

فأجابنى بشمم وكبرياء .

ـــ أنت جميلة ياسميراميس العظيمة إلا أن قلبك قاس غليظ . فلن أكون أسيرك أبداً . ولن تنالى قلامة ظفر من جسمى إلا وأنا جثة هامدة فاحترسى وتيقظى .

وسدد إلى سهما ورمانى به فاخترق ذراعى اليسرى .

وما إن رأى رجالى الدم يسيل من ذراعى حتى ثاروا ثورة الوحوش الضارية وهجموا على الملك الصغير قبـل أن أتمـكن من إيقاف تيارهم ومزقوا جسمه بنبالهم . وأصابه سهم فى فؤاده فاخترقه وأرداه قتيلا .

فصحت صيحة اليأس والألم . فهذا الجسم العاجى المرن كغصن الياسمين صار ملكى وفى حوزتى ولكنه كان أصم هامداً لا نفس يتردد فيه ولا حياة .

وضمدت جراحه ثم نقلته إلى قصرى . وهناك نزعت عنه ثيابه وألقيته على سرير ملكى وأخذت أتأمل فى ملامح هذا الفتى المراهق .وأمرت أشهر حفار ـ وهو كالدانى ـ بتخليد هذه الملامح الطاهرة على تمثال نصفى وضعته على قبر آرا الجميل .

وواريت جثة هذا الملك فى جوف صخرة « ستزك » الشهيرة تعظيما لمكانته وإجلالا لقدره . فكنت إذا جنت ليالى الصيف الهادئة الرقيقة أتوجه إلى هذه الصخرة وأقضى ردحاً طويلا غارقة فى بحار من التأملات أمام قبر هذا البطل اليافع .

وكانت جبال « سيبان » الشاهقة المكللة بالثلوج البيضاء النقية الطاهرة ـ رمز الأبدية ـ تتلألأ على صفحة البحيرة الساحرة فتنعكس أشعتها الفضية وتكسب

حباب الماء لوناً فضياً ممزوجاً بألوان من اللجين . وكل شيء كان يحدثني عن هذا المخلوق الذي وقعت عليه أنظاري مرة واحدة فقاوم إرادتي وثار علي وسحق كبريائي بجرأته وشجاعته وخلد ذكراه بأقدامه وشهامته

وأخذت أتأمل وأفكر في سر الموت الذي كنت أعلم خفاياه ونتائجه . وكنت ، بفضل علمي واطلاعي على السر العظيم المجهول وما وراء الموت ، أنعم في هذه الحياة بما كان ينتظرني من هناء في الحياة الأخرى

ومع ذلك فأنني كنت جد آسفة على موت هذا البطل وهو في ريعان شبابه يملأ الأمل فؤاده ويملأ الحب حياته

ولم أتمالك نفسي فانتحبت وسالت على خدي العبرات من شدة الحزن وتراقي الكمد .



جنود الاشوريين يحملون جثة الملك «آرا الجميل» إلى الملكة سميراميس

وكانت البلاد . فى غيبة نينوس الطويلة قد تقدمت تقدماً محسوساً فكثرت مرافقها وازدهرت معالمها . وكنت أتوق إلى سرعة أوبته من رحلته ليشاهد بنفسه نتائج أعمالى وما وصلت إليه البلاد من الرقى بفضل همتى ونشاطى .

وكنت قد حولت مجارى الأنهر . فتمكنت بهذه الوسيلة من رى أراضى أشور القاحلة فحسنت تربتها

وأينعت ثمـارها وجاءت بمحصول وفير . واخترقت صخور بابيلونبا وعواصم البلاد الأخرى لأنشاء طرق جديدة فازدادت أساليب المعاملات بكثرة المواصلات . ونمت موارد التجارة نمواً عظيما مثمراً .

وورثت عن أمي الالهة دركيتو موهبـــة عجيبة . فـكانت تلك الموهبـة تؤهلنى للتطبيب وشفاء الآلام البدنية المتفشية بين أفراد رعيتى بمجرد وضع يدى على أجسامهم . وتلك النعمة التى كانوا يتمتعون بها وينتفعون بمزاياها وفوائدها جعلت الأمـة بأسرها تلتف حولى وتولينى ثقتها إلى حد كانت كلمتى تنزل عليهم نزول الوحى الالهى وتؤثر فى نفوسهم تأثيراً أعظم من تأثير نفوذى وسلطانى . وشعرت بوجود رابطة متينـة بينى وبين الشعب لا يمكن تحطيمها لأن الخرافة والتعصب إذا ما تسلطا على عقول البسطاء وقلوبهم وجدا فيها مرتعاً خصباً ونزلا منها منزلة قل أن تتحول أو تتزعزع . على أن الشعب بطبيعته لين الشكيمة سهل العريكة . وقيادة

الشعب أسهل مما يتصوره عقل الانسان . وإنه ليكفي أن تثار فيه بعض ميوله المخبوءة ليسير خاضعاً. وإن الفن العظيم هو فى تملقه وإقناعه بأن له مكانته وأنه لا ينظر إليه كرقيق مسير لأرضاء نزعاتنا وتنفيذ إرادتنا وأغراضنا، إن الخرافة مكونة من مجموع عواطف متبـاينة مختلفة . وهذه العواطف يجب مراعاتها واحترامها مهما كانت تافهة فى حـــد ذاتها . لأنها تمثل العادات الموروثة التى تناقلها الخلف عن السلف فأصبحت للأبناء بمثابة عقيدة وإيمان . وهى كذلك تقضى بما هو مفروض على الأجيال الحديثة نحو الأجيال السالفة وتأمر بأقامة الشعائر الدينية للموتى واحترامهم . وهكذا كان الموتى يستفيدون من الشعائر التى يقيمها الأحياء لهم ، لأنهم فى سكوتهم الأبدى يعجزون دون معارضة أعقابهم فى أعمالهم ومشروعاتهم فيكتسبون بذلك احترامهم وتقديسهم . إن الوهم الخرافى أفعل فى عقول الشعب من العقائد والأيمان . ولذلك كنت أتحاشى أن أحارب هذه الخرافة أو أقاومهـا فى

شعبي، بل كنت على العكس أستغلها للتقرب منه ، وهكذا اكتسبت قلوبهم وثقتهم شيئاً فشيئاً . وكنت أحرص على إخفاء معلوماتي ومعارفي . فكنت كلما أخفيت عن الشعب علو مكانتي وتغاضيت عن سلطاني ونزلت إليه وتقربت منه ازداد عطفه علي وخضعت لي نفوسه مع ما هي عليه من الخشونة الفطرية . ومما يؤسف له أن الممتازين الذين اختارتهم يد القدر ورفعت مكانتهم لا يحاولون اجتياز الحاجز الذي يفرق بينهم وبين البسطاء . أما إنهم لو فعلوا ذلك لحالوا دون وقوع كثير من التعاسة والشقاء.

ويجب عند الحاجة معاقبة الثائرين والأشقياء أشد عقاب والتمثيل بهم أشنع تمثيل ليكونوا عبرة لغيرهم . لأن الرعب إذا تسلط على العقول وتملك الخوف من القلوب ، رقت الطباع ولانت الأخلاق ووجد التوازن بين الجموع والأفراد وهذا ما حدا بي أن أجمع بين حلم الأم وقسوة الحاكم المستبد . فاذا رأيت أنني خدعت في

حكمى ووضعت الحلم فى غير موضعه ، تقلصت أسارير وجهى واختفت ملامحه الرقيقة خلف قناع الحاكمه المستبدة .

وعندما كنت أتنقل فى هودجى بين طرقات بابيلونيا وأجتاز الأحياء الوضيعة التعسة . كان الشعب يلتف حولى مدفوعاً بعامل الحب والولاء . وتمتد نحوى أيدى المرضى والضعفاء والتعساء والمعوزين فتأخـذنى إذ ذاك هزة الاشفاق والرحمـة ويملأ الأيمان صدرى فأعمل بكل جوارحى على مواساتهم وتخفيف كربتهم . وكثيراً ما كنت أفلح فى شفاء أمراضهم . حينئذ كنت أشعر بسعادة فائقة فأتجلى وأعزى نفسى فيما كان يعترض سبيلى من المتاعب والصعاب.

وكنت أكافأ على جهودى بما يقع عليه نظرى من المناظر الجميلة التى كانت ترتاح إليها نفسى لأنها كانت خير دليل على رواج الأعمال والتجارة فى عهدى .

فهناك ـ عند الساحة الكبرى التى يفصلها عن المدينة

جسر قائم على نهر الفرات كان يغلق بابه ليلا ليحول دون مرور الأشرار والغزاة - كنت أقف أحياناً وأشاهد جموعاً متباينة من الرجال من مختلف الطبقات والأجناس وخليطاً من المواشي والأغنام. وقوافل الحمير تمر على الجسر وعلى عيونها عقود الخرز الأزرق لتقيها شرة الأعين والحساد وهي تحمل على ظهورها جرار الماء وخلفها أصحابها يحدون ويترنمون. ثم تليها قوافل العيس تسير بخطوات موزونة متئدة وهي تنقل البضائع المشتراة أو المسروقة من بلاد أفريقيا النائية يقودها فرسان من العرب كللت رؤوسهم بالعمائم البيضاء. وفي وسط الساحة حيث يختلط الحابل بالنابل يجتمع باعة البلح وقصب السكر والتين فيوقفون المارة ويمسكون بأطراف ثيابهم وتلابيبهم ويمتدحون لهم بضاعتهم. ثم باعة اليمام في أقفاص من الخوص فباعة الفطائر المصنوعة من دقيق الأذرة. وإلى ناحية أخرى من الساحة وقف جمع من الهنود النحاف الأبدان يحاولون استبدال العاج بأصناف أخرى

من المحاصيل بما اشتهروا به من الحدة وعصبية المزاج .

وإلى جانب هذا كله كنت أرى جموع المشعوذين والمهرجين وعارضي الدببة النازحين إلينا من البلاد الشمالية بشعورهم الشعثاء . يعرضون ألعابهم ويحاولون إرضاء الأغبياء للحصول على بعض الدريهمات . ثم جماعة من سكان الجبال يرتدون جلود الحيوانات بالرغم من وطأة القيظ فلا يدري أحد من أين جاءوا ولا إلى أين هم ذاهبون . فرهط من اليهود بلحاهم الطويلة وأنوفهم المقوسة وهم يلقون نظرات الحقد والضغينة على جماعة من المصريين المسالمين الوادعين وقد تحلت رؤوسهم بعصاباتهم الفرعونية التاريخية وأثوابهم القصيرة البيضاء . فالسوسيين والايتيين الذين كانوا يصيحون بلغتهم الوحشية ويلوحون بأيديهم بحدة . فأطفال أخذ منهم الرعب فكانوا يبكون ويخفون رؤوسهم فى صدور أمهاتهم . فنساء يحملن جرار اللبن على أكتافهن اليسرى وهن يحاولن اختراق تلك الجموع المحتشدة . فرماة النبال من جنود الآشوريين

وهم يحاولون المحافظة على النظام بين تلك الجموع المختلطة لقد كانت الساحة عبارة عن سوق اختلطت فيها الشعوب من جميع العناصر والأجناس وارتفع فيها الصياح بمختلف اللغات وعلا الضجيج والضحك والسب والبكاء والغناء .

وكان هودجي يقترب من هذه الجموع يحمله ستة من النوبيين الأشداء ويحيط به خدمي وتتقدمه فصيلة من الحراس . وكان مافزوداك يسير إلى جانبي على صهوة جواده . فما إن وقعت على الأنظار حتى سكنت حركة الجموع الثائرة ورفرف عليهم ملك السكون وشخصوا إلى كما يشخصون إلى رؤيا . وخر بعضهم سجوداً وحاول البعض أن يصوبوا نظراتهم إلى نظراتي عسى أن يستمدوا منها القوة والأمل .

لقد كنت أتمتع بهبة خارقة للطبيعة وهي التسلط على الجموع بحدة نظراتي .

..

الرؤيا الحادية والعشرون

وأعلن نينوس عن عودته بعد انتصاره على السوجديين فاكتظ الجسر الموصل بين بابيلونيا والمزارع المجاورة بجماهير الشعب ودلائل البشر والفرح تطفر من محياهم. وكان نهر الفرات يسيل بهدوء وعظمة ومياهه الصفراء الكثيفة تتلألأ تحت أشعة الشمس كاللجين. واجتمع على الجسر رجال ونساء وصبية من الذين نزحوا إلينا من جميع أنحاء البلاد وهم يحملون بأيديهم سعف النخل

وباقات الورود تحليها أزهار الخطمية والزنبق . لقد كان المنظر أشبه بطريق من الأزهار فى وسط حديقة غناء تمشى وتتحرك وتنساب كالأفعى الكبيرة .

وكان الشعب يملأ أنحاء المدينة وأسوارها . وزينت جدران المنازل والأكواخ والقصور . واحتفت بابيلونيا العظيمة تحت أكاليل الأزهار والأعلام الملكية التى تحمل شارة أشور وهى تمثل ملكاً متوجاً ومجنحاً بهيئة تمثال جانبى وهو يسدد سهماً . وتكدست الأزهار والورود المختلفة الألوان فى كل مكان . وكان الناظر إلى وجوه هذا الشعب لا يجد بينها إلا وجوهاً سعيدة علاها البشر ولا يسمع إلا أحاديث ونكات سارة .

وكان حفيف الشعب المكتظ حولى فى تلك اللحظة فى انتظار رؤية مليكه الظافر الفاتح أشبه بحفيف النسيم العليل الذى يحرك سنابل القمح الذهبية قبيل الحصاد فى شهور الصيف .

واجتمع كبار رجال الدولة وعظماء أشور على درج

السلم المؤدى إلى القصر الملكى فى بابيلونيا . أما الساحة الكبرى فكانت مكتظة بعدد وفير من أفراد رعيتى وهم فى ظمأ إلى التمتع بالمشهد الرائع الذى ستقع عليه أنظارهم

وارتدوا جميعاً قمصاناً بنفسجية بلون الكوكب زحل وهو الكوكب الذى ولد زوجى فى برجه .

أما أنا فكنت أرتدى ثوباً ثميناً بهذا اللون موشحاً بالتبر . وكنت واقفة على منصة مرتفعة بجانب عرش من الذهب تتناثر حوله وإلى جانبيه أجنحة الالهة التى تحرس البلاد وتصونها من الأرواح الشريرة . وكان ابنى نينياس قد بلغ الثالثة من عمره فجلس إلى جانبى على عرش صغير من اللجين . ووقفت إلى جانبه ظئره وهى تحاول أن تلهيه وتلاعبه . وإلى يمينه وضع عرش الملك فى استعداد لمقابلته .

وبدأت الشمس تجنح إلى المغيب فخشيت أن يطرأ عامل غير منظور قهرى فيحول دون رؤية نينوس المدينة العظيمة والقصر البديع الذى كنت قد جملته فى غضون غيبته

وبغتة دوت الأبواق مؤذنة بوصول المليك وامتلأ الفضاء بأصواتها الحادة المعدنية .

وانتفض قلبي من شدة الفرح . وعرت الجموع هزة السرور وروعة الجلال وامتلأ الفضاء بنكهة النصر والظفر كأن حدثاً عظيما لا يلبث أن يقع وكأن العالم قد استقر فى مكانه والشمس توقفت عن السير إلى الأمام . وارتفع الهمس من الأفواه كأن كل واحد من الموجودين يبتهل بالدعوات ويقدم فؤاده قرباناً فى سبيل مليكه ومولاه .

وظهر الركب الملكى فى وسط ضجة هذا الشعب المتموج يتقدمه حملة المشاعل يركضون ويحيط به رماة النبال وحاشية كبيرة . وظهر الملك فوق عربته أشبه باله : يالها من لحظة لا تنسى وقد امتلأ فيها نظرى برؤية نينوس . وبدأ يصعد الدرج بين صفين من السيوف المشتبكة . فرفعت ولدى بين ذراعى وقدمت للملك وريث عرشه .

وغربت الشمس خلف حجابها القرمزى .

وخطب زينوس شعبه وشكرنى على ما صنعته باسمه فى غيبته .

ولحق الغسق بكوكب النهار النارى واختفى أمام زرقة الليل الشفافة الالهية . وكانت ليلة جميلة صافية الأديم ذابت فيها روح « سن » وتلألأ القمر فى أوج مجده وجلال أنواره . وفى تلك اللحظة ارتفعت من آلاف الصدور أنشودة القمر الرقيقهالجميلة :

« أى « سن » أيها القمر الفضى . أيها القمر الطاهر العفيف »
« أيها القمر الشهوانى . أيها القمر الزائل صنو « شماش »
« وعدو النور . المثير للشهوة والداعى الى الغرام . »
« ووسيط العشاق . أنت يامن يرأس حفلات السمر »
« ويسكر الشعراء ويملأ كؤوسهم بثمالة الجهل . أنت »
« يا من يأمر فيلبي نداءك المد والجزر . ويثير الأمواج »
« وغضب البحار . أنت يا من ينشر على الطبيعة سحره »
« الخفى ويحليها بأحلام الجمال . أنت الوديع . أنت »
« الساحر . أنت المفكر . أنت الصامت . أنت المجهول »

« غير المعقول . والمسالم المطاوع . أنت الالهى . »
« وفى النهاية أنت يا « سن » الذى نعبده ونحن جاثون »
« تفضل وتكرم بنشر حجبك الواقية على الانسانية التى »
« تستظل بأشعتك لتنعم بالراحة والسعادة . انك تستمر »
« فى صعودك أى « سن » وتبدد الغيوم وتثمل السماء »
« بجمالك وتملأ الفضاء برحيق لذتك الهادئة . وهدوئك »
« الشامل . أنت تستدعى ساعة الفرح وتنادى ساعة »
« اللقاء . ان القلوب الواجفة تهدأ وتطمئن تحت تأثير »
« سحرك وجلالك »

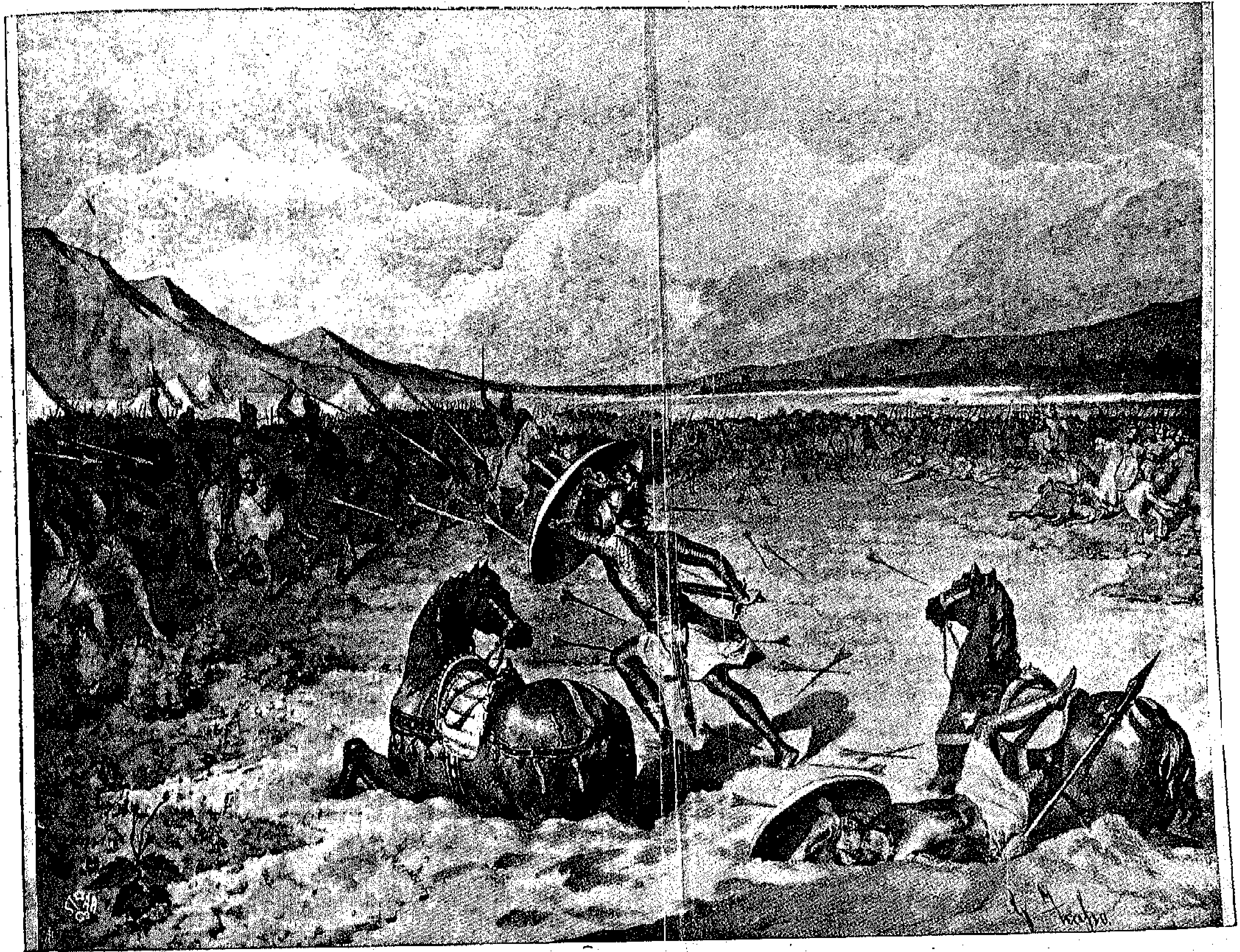
« سن . سن . سن » أيها الاله الكريم . اننا »
« نبتهل اليك ونشكرك على محاسنك وأفضالك »

وأضيئت آلاف المشاعل فأزعجت ظلمة الليل بلهيبها الذهبي المتردد . وتناولت كأس الذبائح المقدسة من يد نيرتيكس وقدمته للملك على مرأى من أفراد رعيتى . فشرب نينوس ما بها وهو يحتفل بعظمة « سن » . وبدرت صيحة عالية من جميع الصدور ، فشعب أشور وبابيلونيا بأسره كان يشكر « سن » لأنه أضاف انتصاراً

جديداً إلى انتصارات مليكهم . وأخذ كهنة القمر ـ وهم فى أعلى المرصد مرتدون ملابسهم الفضية ـ يرددون اللحن الذى رتله الشعب . وبينما كان آلاف الرجال يحيون إله الليل ويباركونه كان القمر يتابع صعوده فى الفضاء بغير ما وجل أو اكتراث .

الرؤيا الثانية والعشرون

وكان اليوم التالى لهذا المهرجان العظيم مخصصاً للتنكيل بالأسرى . فمن التقاليد الموروثة والعادات القاسية المتبعة عند الأشوريين لبث الرعب فى قلوب الأسرى أن ينزلوا بهم من ضروب التعذيب ما يحسن كتمانه لأنه يؤلمنى أن أتحدث عنه . ونصبت المشانق وأعدت آلات التعذيب وجىء بجنود الأعداء مكبلين بالسلاسل فوقفوا فى انتظار الساعة المشئومة . وكان على الملك أن يعطى الأشارة لتبدأ



انتصار الأشوريين على السوجديين

هذه الحفلة الدامية . فيبدأ بنفسه و يفقأ أعين كبار رجال الدولة منهم . فى تلك اللحظة رفعت صوتى :

ـــ إن جحافلك أيها الملك قد بادت فى هذه الحرب الضروس فلا تضح بهؤلاء الرجال الأشداء وابق على حياتهم . ولا تأت أمراً إذاً لا يتفق وعظمة ملكك ومجدك . إن المملكة لفى حاجة إلى أيد قوية عاملة وهؤلاء المحكوم عليهم يمكن أن يصبحوا مزارعين أمناء وعبيداً أوفياء . أنا ضامنة لهم .

وسكت الملك مشدوهاً .

وارتفعت فى الجو صيحات مؤلمة ليس فيها شىء من معالم الانسانية . صيحات تمزق نياط القلب مدهشة غير طبيعية . خارجة من صدور هؤلاء الرجال الذين عاودهم الأمل بغتة وعللوا أنفسهم بعودة الحياة وتعلقوا بحبال الأمل كما يتعلق الغريق بحطام تتجاذبه أمواج الخضم الثائر .

وكان المحكوم عليهم بهذا الموت البطىء قد أدركوا معنى إشارتى وفهموا مغزى أقوالى ووساطتى فضرعوا

إلى مالك ناصيتهم وسيد أعمارهم يلتمسون رحمته ويستدرون حلمه وشفقته. وكانوا مكدسين فوق بعضهم كأشلاء القتلى إذا جمعت فى ميدان قتال لتحرق أو قطيع من الغنم يساق إلى المجزرة لينحر. وقد وضعت فى أعناقهم أطواق من الجلد وغلت أيديهم مع أرجلهم خلف ظهورهم بسلاسل من الحديد.

ــ أهى أنت يامليكتى التى تسترحمنى وتستعطفنى على هؤلاء الكلاب ؟ ألا إن لحم أبدانهم لأقذر مما فى قلوبهم من الأدران. إنهم أعداء وليسوا رجالا.

ــ إنهم أشقياء تعساء!

فارتفع اللغط بين رجال كبار الحاشية من الأشوريين وبدت على وجوههم روح الاستياء فرميتهم بنظرة حوت كل ما فى صدرى نحوهم من الحفيظة والازدراء. وحملتهم على الصمت بأنفة وخيلاء. ثم حدقت بنظرى فى عينى نينوس واستطردت :

ــ أوترانى قد أسديت إليك حتى اليوم نصحاً سيئاً ؟ أم

أنت قد نزعت عنى ثقتك فلم تعد تنتصح بنصحى ولا تعبأ ولا تأخذ برأيى ؟ أجهز على الجرحى منهم ولا تحملهم أكثر مما هم فيه من عذاب وصن حياة الأصحاء والأشداء لاستخدامهم فى الحقول ومرافق البلاد .

وكانت يماماتى قد اعتادت أن تركن إلى كتفى وتحوم حول رأسى وما إن انتهيت من حديثى حتى حلقت فى الجو ثم هبطت وأخذت ترفرف بشكل هالة فوق رأس نينوس حتى كان يخيل أنها رسل تحمل إليه ما استتر من آرائى وأفكارى وتعبر عما يدور فى خلدى من آمال ورغبات، فانبسطت أسارير نينوس بعد أن كانت متجهمة وخاطبنى بصوت رقيق عذب بعد أن كان متهدجاً :

— إننى أفهم لغة اليمام ولسوف تطاعين .

ثم استطرد بصوت جهورى بعد أن استرد هدوءه وسكينته :

— إننى أعفو عن الأسرى السوجديين وأتخذهم عبيداً أرقاء .

فبدرت صيحات من هذه القلوب الواجفة ولكنها لم تكن تشبه الصيحات التى كان الأمل قد انتزعها من صدورهم منذ لحظة . فتلك كانت صيحات غبطة وحبور واعتراف بالجميل . صيحات صادرة من أعماق النفس وقد تجلت فيها الشهوة البشرية . صيحات حادة شعرت عند سماعها برعدة تنساب إلى قرارة نفسى وتحدث فيها تأثيراً عميقاً .

وارتاح نينوس إلى طريقة حكمى للبلاد وإلى الروح الجديدة التى نفثتها فيها والأنشاءات الحديثة التى أدخلتها على المعاهد والزراعة والتجارة والفنون . لقد كان ـ لغاية هذا العهد ـ منهمكا فى حروبه النائية فلم يجد متسعاً من الوقت للاهتمام بصفة مستمرة بشئون الاصلاح والتجديد، ولذلك فانه قد سر من عملى إلى حد رجانى معه أن أستمر فى إدارة شئون البلاد الداخلية لأنه كان لا يريد الإهتمام بغير جنده وجحافله .

وألفيته ودوداً متحبباً كسابق عهدى به قبل رحيله . وصادق أيضاً على السلطة التى منحتها لنيرتيكس . وسر كثيراً عند ما علم بأنى تمكنت من إخماد شوكة الكهنة وكبح جماحهم ونفوذهم . وبعد انقضاء بضعة أيام توجته بيدى كاهناً ملكا .

وكان بين السبايا التى جاء بها زوجى الفتاة نيمور ابنة ملك السوجديين . وكان أبوها وجميع أفراد أسرتها قد تمكنوا من الاختفاء عن أعين نينوس والتخلص من انتقامه واستطاعوا أن يهربوا عن طريق نفق سرى فى اللحظة التى دخل فيها زوجى إلى قصرهم . وبعد انقضاء بضع ساعات على سقوط عاصمة السوجديين عادت نيمور إلى المدينة من النفق الذى هرب منه أهلها وعشيرتها وتقدمت بين يدى نينوس وخاطبته :

ـــ لقد رأيتك عظيما فى حومة الوغى على رأس جنودك تحرضهم على القتال وتثير حميتهم وتسدد خطاهم . فتمثلت لى جميلا كالشمس شديد البطش كأله ! إن من يراك

لا يستطيع الا أن يحبك . لقداقتادنى أهلى فى هربهم السريع على الرغم منى ، وهأناذاقد عدت الآن تدفعنى إليك قوة خارقة للطبيعة . إننى أنكر أسرتى وعشيرتى ووطنى وشعبى وذكرياتى لكى لا أعيش إلا بك ولأجلك . فاقتلنى إذا شئت لأننى سوجدية . ولكن دعنى على الأقل أحبك حتى آخر نسمة من حياتى .

وتلاشت قواها فارتمت عند قدمى نينوس شاحبة اللون ولفت ذراعيها على ساقيه وضمتهما إلى صدرها المفتون . وحدثنى الملك بتلك القصة وأمر بأن تقاد الفتاةأسيرة بين أسلابه لأنه أراد أن أقر رمصيرها بنفسى .

وكنت جد واثقة من حب زوجى لى وإخلاصه لعهدى فأبقيت على حياة نيمور وألحقتها بشخصى الملكى ضمن الأموات

الرؤيا الثالثة والعشرون

وكان نيرتيكس واقفاً بالقرب مني في هيبة ووقار وقد بدت على محياه دلائل الانهماك وانشغال البال كأنما هو غارق في لجة من الأفكار عميقة فبادرته الحديث :

ــ نيرتيكس . أو هناك شيء يقلقك ؟

فأجابني بهدوء :

ــ حقاً إنني قلق حتى لأكاد أكون مغموماً . إنني أشعر منذ حين أن الجو الذي أستنشقه قد تبدل .

فأجبته :

— ومع ذلك . فأنك تسلم معى بأن عودة الملك لم تغير شيئاً من مشروعاتك ومشروعاتى . فأنت مابرحت تسدى إلى الدولة بآرائك الصائبة وجليل خدماتك ونبيل أخلاقك . وما زلت من جانبى أعلى من شأنك وأرفع من سلطتك وسلطانك .

— ليست أوبة الملك ، أيتها المالكة ، هى السبب فى انزعاجى . فقد أدرك نينوس ، إلى أبعد مما كنت أقدر ، أنه لن يستطيع ، لو تدخل فى الأمر ، أن يضيف قلامة ظفر إلى ما فعلته فى سبيل رقى بلاده وإصلاحها . وانه يكتفى بأن يكون جندياً وهو يؤدى مهمته الحربية على أكمل وجه لأنها على الرغم من حيائه وطبيعته الوادعة تلائم أخلاقه . إن حياءه يحول دون إقدامه على اتخاذ أى قرار وهو بذلك يرضى ميوله ويشبع أهواء نفسه . وجدير بنا جميعاً أن نقتدى به ونتجه بأعمالنا ومطالبنا نحو الغاية التى تلائم طباعنا وتطبعنا . تلك هى الغاية السامية التى

يتعين علينا أن نضعها نصب أعيننا ونعمل على إدراكها وتحقيقها .

— إذن . لم هذا القلق الذى يساورك يا نيرتيكس ؟

فصمت المجوسى وأخذ رأسه بين يديه واسترسل فى تفكيره .

إن من اللحظات ما يكون الصمت خلالها أفعل فى النفس من الكلام . ولذلك شعرت بأن الكلدانى أكثر قلقاً واضطراباً مما كان يريد أن يتظاهر به فزدت فى إلحاحى عليه :

— أيها المجوسى الذى كشف لى الحجب الكثيفة عن الأسرار العميقة . وشدد عزيمتى وقوّى إيمانى بالله الواحد القهار . أنت الذى فى مقدوره أن يقاوم الشهوات البشرية والنزوات كما تقاوم السميدر النار — نيرتيكس إننى آمرك أن تتكلم .

وسرى القلق البادى على الكلدانى إلى نفسى وساورنى اضطرابه . فتلك هى المرة الأولى التى رأيته فيها أعزل

من سلاح الهدوء الرهيب الذى كان متسلحاً به دائماً ويكلل به هامته كأنه هالة إلهية :

واستطردت بلهجة آمرة :

ـــ هلا تكلمت فى النهاية ؟

وخيل إلى أن نيرتيكس قد استيقظ من حلم مؤلم ، وجاهد جهاداً عنيفاً ليتمالك نفسه . وبدأ يتكلم إلا أن صوته كان منخفضاً متلعثما :

ـــ إنى لا أستدرك وقوع حادث ولكننى مع ذلك أخاف كل شىء . إننى لا أتبين فى الأفق شيئاً ملموساً تخشى عواقبه ومع ذلك فأننى أشعر بأن شيئاً قد تغير حولنا وأن انسجام حياتنا مهدد بالزوال .

ـــ إن أقوالك مبهمة وأوهامك غير قائمة على أى أساس ، ما دمت لا تستطيع أن تؤيدها بالوقائع والبينات .

وبدأ المجوسى يتمالك نفسه شيئاً فشيئاً واستطرد بصوت أكثر ثباتاً :

ـــ إنك قليلة الحكمة قصيرة الأدراك أيتها الملكة

لأنك تحتفظين بالقرب منك بنيمور التى تعبد نينوس ولا تحذرين العواقب . . .

فقاطعته بحدة :

ـــ وهل يمكن أن أشك فى الملك الذى يحبنى إلى حد العبارة ؟ أو يمكننى أن أغار من أمة حقيرة ؟

ـــ لئن كانت أمة فهذا لا يمنعها من أن تكون امرأة !

ـــ امرأة أو أمة فأننى واثقة من فؤاد زوجى .

وتمالك الكلدانى هدوءه وأضاف بشدة :

ـــ آه ! أنانيتك أيضاً . نقيصتك الكبرى التى تعميك . تتوهمين أن شخصك معصوم وأن هذه العصمة تقيك غوائل الدهر والحدثان . ولكن لا تنسى أن نينوس رجل .

فجرحت فى عزة نفسى وصحت محتدمة :

ـــ أنت تعلم مع ذلك ان اكسيرى لا يخطىء . وأن نينوس سيظل على حبه لى حتى آخر نسمة من حياته .

فاكفهر وجه المجوسى وعلته صفرة سرت إلى جميع ملامحه وأجاب بصوت مختنق :

— إنما أتيت لأخبرك أيتها الملكة بأننى سأفارقك إلى الأبد

فعرتنى الدهشة وتملكنى الألم وصحت بشدة :

— كيف ! تريد أن تفارقنى . أنت . شريك حياتى . حارث أرضى وزارعها . وصانع مجدى ومشيده . أنت . نيرتيكس . تريد أن تفارقنى ؟ أما إنك لو أنبأتنى بأن الأرض قد انشقت تحت قدمى ومادت ، وأن السماء ستنهار فوق رأسى . وأن الشمس وقفت فى سباقها . لكنت أقل دهشة منى الآن . تعتقد بأن خطراً يهددنى ثم تريد أن تفارقنى ! نيرتيكس . أوحق ما تقول ؟ أو يمكن ذلك ؟ تكلم . ما بك ؟

فأجابنى المجوسى بوقار مهيب :

— ألا إننى أفارقك فى الوقت المناسب ياسميراميس. لا تخشى شراً مستطيراً وويلا كبيراً يصعب تلافيه .

إننى أفارقك لأنه يجب على أن أفارقك . ان إلهامى يوحى إلى بهذا القرار والقدر يريده !

فاختلج صدرى ولم أحر جواباً . ولم أتمالك نفسى عندما فكرت فى أننى سأفارق هذا الرفيق الأمين الذى خدمنى بمثل هذا الأخلاص والوفاء . وتندت عيناى بالدموع فغشت بصرى . ولم أستطع أن أتكلم أو آتى بحركة . وخيل إلىّ أننى جمدت وتحجرت وعجزت عن المقاومة فكنت أصغى بلا اعتراض إلى الكلمات التى كان يفوه بها نيرتيكس . وكأن رنة صوته قد تغيرت وعرتها نغمة رقيقة حتى لقد خيل إلى أن هذا الصوت كان آتياً من بعيد . من شاطىء ساحر زاهر حيث لا توجد إلا الغبطة والشهوة .

وكان هذا الصوت يناجينى بقوله :

— إننى أفارقك يا سميراميس لأننى أحبك . أجل أنا نيرتيكس المجوسى المتكبر والعراف الطاهر العفيف . قد تملكنى إله الشهوة الجبار . إننى أنحنى أمام عظمة الحب

وسلطته التى طالما احتقرتها وحاربتها ... إننى أحبك . فأنت فى الحقيقة أقدر الأثنين منا ، ولأن نزعة الشهوة وتجاربها لم تهاجمك ، أو أنها تكون قد عضتك بنابها ولكنك تمكنت من التغلب عليها وإقصائها بقوة وشجاعة. أنت تعلمين إلى أى حد يؤثر الحب فى حواسنا ويعدمها ويتسلط على عقولنا فيضعفها وإنه لمن الصعب على المرء أن يتحكم فى غيره إن لم يبدأ بحكم نفسه . الحب، إن معناه التخلى عن الحكم والزهد فى السلطة والملك . الحب ، هو ضياع كنوز الحكمة ، التى تكبدت الصعاب فى سبيل جمعها، فى يوم واحد . أجل : أنا أحبك يا ملكة أشور، وفى تلك اللحظة التى أتذلل فيها أمامك وأكشف لك عن جرح فؤادى الدامى ، أشعر بأنى أرتعد فرقاً خشية أن أجد منك تشجيعاً على موقفى بنظرة أو إشارة لأننى لم أجد من الشجاعة ما يكفى لأقاوم اغتباطى . إن أملى الوحيد فى مناعتك ليتحطم وينهار تحت أنقاض حلمى الزائل . إننى أريد . إن واجبى يدعونى إلى الاحتفاظ باعتقادى فى

مناعتك. وإن واجبك يقضي بأن تحافظي أمامي على سحر ألوهيتك.

كنت شاخصة إلى الأرض أسائل نفسي عما إذا كنت ألعوبة الوهم أو الهلوسة. واستطرد وهو يرتعش:

ـ منذ نيف وأربع سنوات وأنا أعيش في محيطك، أستنشق شذى جمالك، وأحيا بنسمات حياتك، وأعلل النفس بأنني سوف أستطيع أن أقهر نفسي، وأخضع ميولي وأخفي عنك قلقي واضطرابي، وكذلك الرغبة الجنونية التي كانت تهاجمني وتتنازعني كلما وقفت إلى جانبك. إن صداقتك البريئة كانت تحملك على الاستسلام باخلاص. وقد شربت رحيق نفسك كما أشرب الكوثر الالهي. وخبرت هذه النفس وعركتها وتملكتها. وتسلطت على فكرك كما يفعل السيد الظافر. وعجمت عودك وألنته كما شاءت رغبتي وإرادتي ـ وإني لأستطيع أن أفخر بعملي لأنني جعلت منك سميراميس العظيمة، والملكة الخالدة التي ستتكلم عنها الأجيال المقبلة وتردد ذكراها باعجاب وفخار. وإني،

لكى لا أفقد هـذه النفس الطيبة إلى الأبد ، أريد أن أفارقك . ويجب على أن أفارقك .

وهنا بدرت من صدره زفرة هى أشبه بحشرجة المحتضر واستطرد بيأس وألم :

— لقد ظننت بأننى نجحت فى التغلب على عواطفى . واأسفاه . فأنا منذ ان آب نينوس لم أعد أملك قياد إرادتى

وأخذ صوته ، عند هذا القول ، لهجة عميقة كأنها خارجة من أعماق الكهوف واستطرد :

لا أكاد أفكر فى أنك ملك لآخر حتى يثور بدنى وتختلج نفسى فتساورنى أفكار الجريمة والقتل . سميراميس . سميراميس ! لم أعد أملك قياد نفسى . فأنا أحبك وأشتهيك ! . . .

واختلج صدره وهوى تحت قدمى وأخذ ينتحب ويعفر جبينه فى الرغام .

وقد أثرت هذه اللهجة فى شعورى وحركت مكامن أشجانى فلم أثر . وشعرت بشىء لذيذ شفاف يمر بينى وبينه

فى تلك اللحظة الرهيبة . وذلك الشىء الخفيف الشفاف هو الشفقة .

على أن هناك عاطفة أخرى قد انسابت خفية إلى قلبى النسائى . عاطفة كنت أجهلها للآن فسحرتنى وأخافتنى معاً . . . شعرت بطعنة حادة ولذيذة تمزق نياط فؤادى ، فأغمضت عينى عفواً لأطيل أمد استمتاعى بهذا الشعور الجديد . وتخيلت أمامى جمال هذا الحب العظيم . وشعرت بعالم من مختلف الانفعالات النفسانية يهاجم دماغى ويتسلط على عقلى ونفسى .

كنت أشعر بعاطفة تدفعنى وتقصينى معاً نحو هذا الكائن المدهش الفذ الذى يتفق معى فى أخلاقه ومشاربه وإدراكه للأمور وتعليلها . ذلك الكائن الذى سحرنى بأفكاره وعقليته السامية . لئن كانت قيادة الجماعات وحكم الجماهير من الأمور المستحبة فأن الخضوع لمن نهوى لأحب وأسمى . فقد كنت أحبه فعلا وهذا ما تبين لى فجأة فى تلك اللحظة .

وتغلبت الحكمة على القلب . وربما كانت الأنانية ، تلك الأنانية التي تهبني لذة السيادة على الجميع . فأبت نفسي على أن أنزل إلى مستوى غيري من النساء . وهل كنت أستطيع ذلك ؟ ألا إنه لا يمكن أن يكون لسميراميس العظيمة والملكة المعصومة عشيق ، فتخون الحب الذي وقفته على مليكها . على ذلك الذي وضع بين يديها صولجان ملك أشور .

فقاومت تأثير الحب مقاومة عنيفة خفية . ولم يعلم نيرتيكس أبداً مقدار ما عانيته لأدفع عني التيار الذي كان يجذبني إليه .

وأخذت أتأمله بحزن وكآبة . ومددت له يدي بدافع عظيم من الشفقة والميل .

ومكثنا صامتين ردحاً طويلا ، طويلا جداً . لقد كانت مشاعرنا متيقظة وثائرة إلى حد أننا كنا نتفاهم بدون أن نلجأ إلى التعبير عنها بألفاظ تافهة جوفاء .

ووقف مقوس الظهر . وأخذ يقبل يدى بغرام وشهوة . وأمرته فى النهاية أن يعتدل وقلت له بصوت حاولت أن أجعله هادئاً رزيناً :

ـــ نيرتيكس ، لقد علمتنى فيما مضى أن الألم يطهر النفس ويرفعها . إنك الآن تتسلق آخر درج من سلم الطهر والتطور . فاقبل بشجاعة هذه المحنة التى أرسلتها لك السماء وقربتك منى .

فتمتم فى زفرة :

ـــ وبما ذا تحكمين على ؟

ـــ إنك باعترافك قد وقعت على حكمك بنفسك . يجب أن ترحل . وا أسفاه ! حتى إذا ما حانت الساعة وشفيت من نزعة جنونك. فتستطيع أن تعود إلى. ولكن لشد ما يؤلمنى فراقك لى، ولسوف أذرف الدمع السخين على احتجابك عنى . فقد كان فى استطاعتنا متحدين أن نحكم العالم . اذهب على بركة الله الواحد القهار فسوف يسدد خطاك ويحرسك ثم يردك لى قريباً بعد شفائك .

الرؤيا الرابعة والعشرون

وتتالت على أيام قاتمة مكفهرة مذ أن احتجب عنى نيرتيسكس. وكأنه انتزع منى خير ما نضج فى مخيلتى وذهنى من جلائل الأفكار وأصبح محتوماً على أن أخوض الميدان وحدى وأحتمل عبء المتاعب التى تعترض طريق حياتى وتكتنفنى. إن الأنسان ليشعر بقوته الحقيقية لو أتيح له رفيق وفىّ يتآزر وإياه على العمل... ولكن هل كان فى مقدورى أن أتردد فيما فعلت أو أعمل إلا ما قررت ؟

أو كان يمكنني أن أتردد أو أجبن فينهار عملي العظيم الذى بدأته وهرقت فى سبيله دماء قلبي ؟ كنت قد أدركت قمة المجد والسلطة . فزوجي يعبدني، ورعيتي تخشاني وتجلني، وأعدائي يسجدون لهيبتي، ويخشون سطوتي ، ويرهبون نقمتي ، ويتمثلون بي كما يفعلون بالآلهة . وقد أرغمت الأنوف الشامخة وأذللتها . وحطمت سلطة الكهنة فدالت دولتهم التى كانوا أنشأوها فى وسط الدولة . وأعليت شأن بلادى فبدأت مدنيتها ترفرف على أنحاء العالم طرا . فهل كان يحق لى بعد ذلك أن أهمل واجبات مهمتي السامية الخارقة للطبيعة لكى أصغى إلى صوت الحب ؟ أو كان يحق لى أن أشبع فى نفسى غريزة المرأة بأن أضحى بمكانة الملكة ؟ كلا . فمثل تلك اللذة العظيمة كانت محظورة عليّ. واخترت الطمع ـ الطمع المستبد الأشعبي ـ ونزعت إلى تلك العاطفة الوثابة الثائرة، فهى وإن كانت تملأ النفس فراغاً إلا أنها كانت تحمل إلى هذه النفس شعور الاستمتاع بلذة الانتظار .

هل كنت امرأة فى الحقيقة ؟ ألا إننى كنت أشك فى ذلك على الرغم من عطفى على نينوس وحنوى على ولدى

الحقيقة أننى لم أكن سوى رأس وإرادة ونشاط وآلة لتحكم وقوة غاشمة لتأمر وتحطم كل ما يعترض رغبتها، ومنظمة لاتجارى وكائن ظامىء إلى ورود مناهل المجد والجاه. وامرأة مختارة تنفذ ما كتب لها على صفحة القدر.

هل استطعت أن أكون عاشقة ؟ أو كان فى مقدورى أن أجيب نيرتيكس على عاطفة الحب السامية التى كان يكنها لى هذا المخلوق العجيب وتمكن من إخفائها عنى نيفاً وأربعة أعوام ؟ كان لابد من عودة نينوس لتنتزع من صدر هذا المجوسى الصامت اعترافاً بحبه العجيب . وقد استطعت أن أعيش أكثر من أربعة أعوام إلى جانب شعلة الحب المضطرمة بدون أن أحترق بلظاها .

كيف تمكنت من مقاومة لهيبها عندما مسنى بريق الشهوة ؟ فمن أية طينة جبلت ومن أى معدن صهرت نفسى ؟

كيف استطاعت قوتى أن تقاوم ولا تستسلم لهذا الأغراء اللذيذ الذى خلق له كل كائن بشرى ؟

ووقفت بأفكارى عند هذا الحد مغمومة مكروبة... ومر بخاطرى سؤال :

ــ أوليس ما كنت أشعر به نحو نينوس هوالحب ؟

ــ ومع ذلك فقد كنت أحبه ! يا لسر الفؤاد البشرى . ما أنت إلا هوة سحيقة لا قرار لها ولا نهاية... ترى من أى عنصر يتألف ذلك الشعور السامى الكريم الذى حمله إلى نفسى ؟ . . . فأجابنى صوت خارج من أعماق تلك النفس :

« إن هذا الشعور جبل من طينة الحنو والاعجاب والاخلاص والوفاء» . كنت أحب أن أرى هذا العاهل العظيم والجندى المستوحش يتربص بين ذراعى كالطفل

ويستمد القوة والنشاط الذى كان يعوزه . الحقيقة أننى كنت أحبه كما تحب الأم بكر أبنائها . وكما يحب المستبد الضعيف الهزيل . ولكننى لم أشعر وأنا إلى جانبه بمثل ذلك الارتياح وبمثل تلك الطمأنينة التى كان يوحيها إلى المجوسى ولا بذلك الاضطراب الذى سرى إلى نفسى وحواسى عند ما فاجأنى نيرتيكس باعترافه .

لقد قضى الأمر !

ووجدت من نفسى الشجاعة لأقاوم حنوه . وإنه ليجب على سميراميس العظيمة أن تظل ، فوق كل اعتبار ، إلهة وملكة !

وا أسفاه ! لقد حملت نفسى جهداً فوق طاقتها . وخنقت فؤادى حباً ببلادى . فقد سلبتنى أشور كل شىء حتى سعادتى وهناءتى !

وكان نيرتيكس قد فارقنى ، دون أن يخبرنى إلى أى بلاد أزمع الرحيل ، ولا أية سماء ستظلل كربته وتخفف من لوعته .

وتناولت أزمة الحكم وحدى .

وكيف كان يتسنى لى أن أهدأ أو أستريح بعد تلك الصدمة لو لم أجد لنشاطى مجالا جديداً ، ولو لم ينصرف ذهنى وتفكيرى إلى غاية رهيبة : هى الحرب ؟

أجل . كنت فى حاجة ماسة إلى الحركة . إلى تحمل الأعباء والمسئوليات والاختلاجات والاضطرابات . كنت أريد أن أقاوم الصعاب والمشقات وأن ألعب بأرواح الرجال وأهزأ بأعمارهم وأتحكم بما قدر لهم . أن أكون سيدة الساعة !

وأدرت نظرى نحو مصر وكنت قد اخترتها ميدا ناً جديداً لجهادى ومرتعاً خصباً لأحلامى .

الرؤيا الخامسة والعشرون

ولقد كان الواجب يدعونى ، قبل أن أغادر ملكى ، إلى تعيين خلف لكبير كهنة الشمس فقد ظل هذا المنصب شاغراً مذ أن رحل نيرتيكس .

وربما تسرع نينوس إذ أسند هذا المنصب إلى نيربال رئيس الكهنة السابق ـ على أنه يجدر بالذكر اننى ، على الرغم من كراهيتى لهذا الرجل واشمئزازى منه ، لم أمسك عليه شيئاً يؤخذ به أو يؤاخذ عليه فى حين أن ظاهره كان يدل على الخادم المخلص الوفى .

وكان نيربال ذكياً بلا منازع . ولكننى لم أستطع أن أتعود نظراته الزائفة ولا ابتسامته الساخرة التى كانت لا تفارق شفتيه النحيفتين . وقد خبرته تماماً وعجمت عوده وقدرته حق قدره مذ أن التقينا لآخر مرة . ومع ذلك فهو وحده كان أهلا لأن يخلف نيرتيكس لأنه عليم بكثير من الأسرار . ثم ان موقفه منى وتظاهره بالامتثال والخضوع لأوامرى كان قد حملنى على الظن بأن الدرس الذى ألقيته عليه فيما مضى قد أثمر .

وإنه لمن أدق الأمور وأصعبها على الملكة أن تقف على ما يجول بخاطر أتباعها وتستكشف دخائلهم . فليس فى المكانة الممتازة التى تشغلها بينهم وتضعها على رأسهم ما يغريهم على الأفضاء إليها بما يعلمون وما يكتمون .

فالمرء لا يدرك وطره وينال مآربه ويقف على ما يهمه الوقوف عليه إلا عن طريق الصداقة المتبادلة بينه وبين الأفراد . ومن دواعي الأسف انه لا يوجد

للملوك أصدقاء . وإن جميع من يحيطون بهم من بطانة وحشم ليسوا إلا من ذوى الأغراض والزلفى . ولا غاية لهم إلا تشويه الحقائق وإظهار الحسنات بمظهر السيئات !

وأردت قبل الرحيل أن أقيم وليمة لأتباعي ورعيتي . فقد كنت أقدر تأثير الفرح فى نفوس الشعب إذا ما اختلطت طبقاته وتبودلت الآراء واتحدت الأفكار فليس أفعل فى النفس لتوطيد العلاقات وتحسينها وتقريب الشقة بين الحكام والجماعات والأفراد أكثر من المسرات . فهى العامل الوحيد على تهذيب الأخلاق وتوطيد العلاقات البشرية ونشر الأمن والسلام . . .

وبهذه المناسبة حررت العبيد من الرق أربع وعشرين ساعة منحتهم خلالها الحرية التامة . فكانوا يستطيعون التنقل والاختلاط بجميع طبقات الأمة والتمتع بميزات الرجال الأحرار . وكان يمكنهم فى النهاية أن يتطلعوا إلى السماء ويشاهدوها بدون حاجة إلى الانحناء إلى الأرض تحت تهديد السياط . وأمرت الطوائف الأخرى ، وهى

بطبيعتها كبيرة الاعتزاز بمناقبها ، أن تنسى فى غضون هذا المهرجان والأفراح الفارق الذى يفصل بينها وبين الشعب والاندماج بالعامة والرعاع بغية التوفيق بين رغبات الفريقين ومطالبهم المشتركة .

ففى هذا اليوم الفذ الفريد ، بينما كنت أشاهد هناء الشعب وأفراحه ، تبينت ـ كما لو كنت أرى حلماً ـ امكان ايجاد مجتمع إنسانى ترفع عنه الحواجز وتحطم القيود والتقاليد التى تفرق بين طبقاته وأفراده . ولكننى أدركت وأنا أختنق فى أعماق صدرى زفرة حارة ، إن هــــذه الرؤيا السامية لا يمكن تحقيقها فى هذا العالم وإنها ما تلألأت لناظرى وجالت بخاطرى إلا بايعاز من الناحية الالهية التى كنت أحملها فى خبيئة نفسى .

ولاحظت باهتمام ما يمكن أن يدركه الشعب من القوة والعظمة ونفوذ الكلمة إذا ما اتحدت عناصره وتضافر أفراده فأوجدوا فيما بينهم وحولهم محيطاً هادئاً . ولكننى مع الأسف كنت أعلم أيضاً أن الاحتفاظ بالشعب فى

حدود الطاعة ودائرة الخضوع يتطلب جهوداً جبارة وإنه يجب أن تثار همته ويجدد نشاطه ويعلل بحملات وغزوات ناجحة وفتوحات ظافرة ليروى ظمأه منها ويشبع مطامعه بما يؤول إليه من السبايا والأسلاب .

ثم تخيلت الكتلة الرهيبة التى تخلقها الحروب . فاذا كانت المطامع الأشعبية الوحشية تمتد وتنتشر فان عاطفة الأتحاد الأخوى تتولد منها أيضاً . لأن الآلام والتضحيات التى يعانيها المحاربون تصيرهم رجالا أشداء وفى كثير من الأحيان تخلق منهم أبطالا . وإن الانسانية لا يمكن أن تتطور إلا بالتضحيات والألم !

وما ناء الليل بجانبه . وطلع الفجر وسطع . حتى اكتظت حدائق المعلقة بجموع غفيرة هادئة . فقد كان أهم ما يصبو إليه الشعب فى هذا اليوم العظيم هو الوصول إلى تلك الأماكن المحظورة المخصصة لملوكهم والتى فتحت له أبوابها ليتمتع بمشاهدة بدائعها وجمالها .

وكنت واقفة مع نينوس ونينياس على قمة المنصة

العليا عند رأس الحدائق فكنت أشرف على جميع أنحائها وكنت قد ناديت فى الشعب بأننى أضع حدائقى الزاهرة الغناء تحت حراسته ورعايته . وبالرغم من ذلك كنت مقتنعة من أنها سوف تكون فريسة فضول محموم .

ورأيت هذه الأمواج البشرية تتدفق نحوى وتقترب منى . وكانت الشمس قد برزت من حجابها وذرّ قرنها وأخذت تكلل رؤوس أتباعى بأشعتها الذهبية .

وارتفعت الأصوات مرتلة لحن الفرات :

سل أيها النهر الأبدى واطو الفضاء
سل . سل فى طريقك الى دار الخلود والهناء
ان الرجال تمر
والبلاد تنهار
والعواصف تدمر وتبيد المزارع فى طريقها
أما أنت أيها الفرات العجيب
نهر الجمال
ونهر النسيان
فانك لا تبالى بشقاء البشر
وتحمل معك الابتسام والسرور

أنت تروى الأرض
وتروى ظمأ الرجال
وتسحر الأنظار
وتخلق الجمال
سل . أيها النهر الأبدى
سل . سل الى الأبد

وكانت الجموع أشبه بكتلة كثيفة من الأشباح سائرة إلى مهاجمة السماء. فكان المنظر جميلا خلاباً . وكانت تلك القوة المائجة الهائجة مخيفة. ورأيت نينوس وقد شحب لونه وذعر نينياس وأخفى رأسه بين طيات ثوبى. إن للشعب نفوساً مشتركة جذابة مجنونة . على أنها إذا كانت مدفوعة بحسن النية والاخلاص فانها تعمل بحكمة وروية . ففى هذا اليوم كان السرور والاعتراف بالجميل يملأن قلب الأشوريين طرباً .

وكانت ملابسى منسوجة من الكتان الأخضر . لا يستر جسمى غير ثوب بسيط فى استطاعة أية امرأة من نساء رعيتى مهما تعاظم فقرها أن ترتدى مثله .

وعنــد ما أدركت الجموع الحد الأخير الذى عين له.
وقف فجأة من تلقاء نفسه وأخـــذ يتموج ويتقلب كالأفعى . وفى تلك اللحظة علت أنغام الموسيقى فأخذ الشعب ينصت إليها بورع وتقوى . فأدركت فى الحال أنه يسهل فى كثير من الأحيان قيادة النفوس المشتركة وحكمها على قيادة فرد واحـد وإخضاعه . فلئن وقف شخصان وجهاً لوجه فانهما يتنازعان ويمزقان بعضهما فى حـين أنه يسهل قيادة الجماعات كما يقاد الطفل إذا كانت هذه الجماعات خاضعة مستسلمة .

ووقع حادث مؤثر :كان أحد العبيد ، عرفت فيـه أحـد رجالى ، يقود بيده طفلا فى عمر نينياس . وأراد الطفل أن يقطف زهرة كانت تتمايل على غصنها عنـد حاجز المنصة التى كنت واقفاً عليها . فعذله أبوه وحال بعنف دون ارتكاب هـذا الجرم . فلما وقع نظرى على هذا المشهد أشرت إلى ولدى أن يقطف الزهرة ويعطيها إلى ابن ذلك العبـد . فأطاعنى فى شىء من ذلك الارتباك.

اللطيف الذى يمتاز به الأطفال . حينئــــذ علت دمدمة ارتياح رقيقة من جميع الصدور فكانت خير جزاء لى على إشارتى الفجائيـــة . فليس أحب إلى القلب من شكر المساكين المعوزين لأنه يصدر عنهم عفواً وبدون تعمد أو إيعاز .

وأخـذت هذه الجموع البشرية ترتد نا كصة وتعود أدراجها لتستمتع بمختلف الملاهى وشتى الألعـاب . وتركت بدورى المنصة ولاحظت فى كثير من الدهشـة والارتياح أن الجموع لم تحـدث إلا قليلا من الأضرار فكأنها كانت تؤيد حسن ظنى بهـا . واعتليت مركبة ملكية إلى جانب زوجى وولدى وتوجهت نحو ساحـة فسيحة أقيمت فى إحدى جوانبها منصة مرتفعة نستطيع أن نشاهد منها أفراح الشعب وتطوراته .

وهناك شاهدنا حفلات الأحـداث والفتيان . وقد كنت أهتم لهـا كثيراً لأنها كانت ضروباً من الفروسية والشجاعة والتوازن والقوة يقوم بها شباب أشور ـ وهم

عمد المستقبل ومحط آمال العنصر الأشــورى الناهض ـ ويتظاهر ويظهر ما تخبئه نفســه من الآمال والخيال . فقد عملت بكل قواى على أن أبث فيـه روح الذوق السليم والاعتداد بأنفسهم ومقدرتهم لأننى كنت مقتنعة تمـام الاقتناع من أن النفس لا يمكن أن تتطور تمـاماً إلا فى جسم صحيح وإنه لابد من التوازن الخلق والجسمى للحصول على نتائج كاملة طيبة . فـكنت أتمنى لو استطاع كل فرد منهم أن ينمى جميع مواهبه الطبيعية . وأملى فى ذلك أن أبرهن لهم على قيمة التعاون المشترك لأن رغبة الرجل فى إسعاف جاره تزداد بازدياد قوته فالرجـل الضعيف الهزيل انانى بطبيعته ، وضعف جسمه لا يجعله يفـكر فى غـير نفسه . وتمـكنت رويداً رويداً من إلهام شعبى وحمله على الأخذ بمبدأ الدين المدنى الذى ساعد على تقوية العنصر الأشورى بشـكل عجيب .

وبدأ الشبان ، وهم عراة الصدر والظهر ، يستعرضون حركاتهم الموزونة وألعاب القوة والرشاقة . واجتمع

الشيوخ والنساء والأطفال عند جانبي الساحة يشاهدون ويطربون .

ثم مرت مواكب الصناع .

وعزف الموسيقيون أولا . ثم وقفوا ، على شكل مروحة ، عند أسفل المنصة وأخذت آلاتهم المختلفة تصعد ألحاناً شجية كنت أتذوق شاعريتها وسحرها أكثر من أي فرد من أفراد رعيتي . أن الموسيقى ، وإن كانت لا تفهم ولا تقدر ، تعتبر عنصراً لازماً في كل حفلة . ثم مرت مواكب الحدادين والدباغين وصانعي الأسلحة والترزية والنساجين والزراع . فكان تأثيرهم عظيما فقد كانت عرباتهم ، التي تجرها الثيران بالأزهار والرياحين . وتلاها موكب الفنانين من رسامين وحفارين ومعماريين فكان خاتمة المواكب . وبرزت الراقصات واستعرضن حركاتهن اللطيفه المنسجمة . وفي النهاية ظهرت جموع الكهنة المتوجين وعلى رأسهم نيربال . فكان وجهه الساخر يتلألأ وراء الوشاح الشفاف الذي يستره بنور الكبر والخيلاء ورتلوا أنشودة موجهة إلى الشباب والقوة والخليقة

اننا نحتفى بك
أيها الشباب القوى
محط آمال أشور ومستقبلها
وسليل الأجداد الاماجد !
الذين خلقوا فى وسط الحب
والاقدام والقوة .
أنشروا الخوف والذعر بعيداً
وارفعوا راية المجد الأثيل
حتى اذا عدتم الى دوركم
أعقبتم نسلا كريماً من الأبطال
المجد لأشور
المجد للكاهن الملك
المجد للملكة الكاهنة !

وكنت قد ارتديت مع نينوس معطفاً طويلا موشى بالذهب وكللنا رأسينا بالتاج الكهنوتى المرصع بالحجارة الكريمة فمددنا ذراعينا نحو الشعب الجاثى لنباركه . وعلت فى الفضاء أصوات الأبواق معلنة نهاية المهرجان الشعبي . وكنت قد تعمدت ألا يظهر ، فى هذا المهرجان، العنصر الحربى. لأننى إنما أقمته ليكون مهرجاناً

للسلم واجتماعاً عاماً رهيباً ليتمكن الشعب من معرفة كفاءته وقيمته الشخصية لتظل ذكراه عالقة بذهنه كغيضة زاهرة . إذا ما جنح به الدهر يوماً وقلب له ظهر المجن .

وانتشر الشعب عقب ذلك فى الغياض المجاورة حيث كنت قد أعددت لهم فطائر العسل والبلح والمرطبات وانقضى الليل فى سرور وغناء .

الرؤيا السادسة والعشرون

وفى اليوم التالى لهذا المهرجان وقفت جهودى ونشاطى، على اعداد ما يلزم للقتال .

وبينما كانت الهمة تبذل فى هذا السبيل نزلت يوماً إلى النفق وتوجهت نحو الناؤوس لأستمد القوى وأستلهم الوحى من الحجر الأسود .

وسرت فى ذلك الممر الطويل المؤدى إلى المحراب. ورددت ذكرى نيرتيكس الذى رافقنى اليه منذ عهد

قريب لم يزل ماثلا فى مخيلتى فشعرت بضعف ينتابنى وكان لا بد لى أن أبذل جهوداً عنيفة لأقطع وحدى هـــذا الطريق الموحش .

وضغطت بيد مرتجفـة على اللولب الخفى الذى يفتح الباب السرى . فخيل إلىّ أنه يقاوم ضغطى فثارت نفسى من فشلى . على أن الباب فتح فى النهاية فولجت إلى داخل الناؤوس ولشد ما تأثرت من الضوء الضعيف المنتشر فى أ ائه . أما ذلك الضوء الوضاح الذى صادفته فى زيارتى الأولى فانه قد زال . وتقـدمت فى الظلمة وأنا مضطربة قلقة . وأدركت الحجر الأسود وعفرت جبينى فى التراب وأنا أضرع إلى العزة الالهية ولـكننى لم أجد العزاء الذى كنت أنشده وأؤمل فيه.

وعند ماخرجت من الناؤوس وأنا مكتئبة شديدة الغم وقفت حائرة أفكر فيما عسانى أن أفعل. ولـكن الاعدادات الحربية كانت قد قطعت شأواً بعيداً بحيث لم يعد فى مقدورى أن أعدل عنها أو أتقهقر .

ولم يكن من شيمتى ولا من خلق أن أعدل عن تنفيذ قرار وضعته أو أعدل عن أمر عزمت عليه . ولكننى مع ذلك لم أتفاءل خيراً بنتيجة الخطة التى رسمتها وعلقت بها نفسى

وكنا قد قررنا أن نهاجم جيراننا المصريين. تلك هى المرة الثانية التى كنا نطغى فيها بأسلحتنا الظافرة على هذه البلاد بعد أن فرضنا عليها خراجاً سنوياً وألحقنا كتيبة من جنودها ضمن جيوشنا . وكان يجب علينا ، للوصول إلى أرض الفراعنة ، أن نقاتل قبائل الخيتاس وندحرهم فى طريقنا ثم نقطع الصحراء القاحلة ونتعرض لقيظها اللاذع وهوائها الذى يثير عواصف الرمال فيدفعها أمامه كجبال متحركة فيعمى بها الأبصار . وكان لا بد لنا أن نضمن تحالف القبائل المنتشرة فى هذه الأرجاء وإخلاصهم لنا وانضوائهم تحت لوائنا لتذويدنا بالماء . ونأمن شر الموت ظمأ . على أنهم لو أخلوا بتعهداتهم كنا أبدناهم عن آخرهم بغير ماشفقة ولا رحمة .

وكان علينا أيضاً أن نفاجيء الجنود الذين أناط بهم فرعون حراسة مناجم النحاس فى سينا ونفتك بهم .

وكانت جحافلنا ترتدى الملابس القرمزية المذهبة وتحمل الرماح الحادة المدببة التى تلمع كالكواكب فى سماء الربيع . وهاجمت جنودنا قبائل الخيتاس على حين غرة فكانت كذئاب جائعة أطلقت على قطيع وديع من الغنم . وأبادتها عن بكرة أبيها ولم تترك وراءها إلا الخراب والدمار . وهدمنا المنازل والمدن ودسنا الحصاد بحوافر الخيل فمسحناها كما لو كانت طعمة لأعاصير الأرض وصواعق السماء. ويمتاز الأشورى بطبيعته باحتقار العدو ولذلك لم يترك رجالى خلفهم شيئاً وتركوا الدار تنعى من بناها . ومثل ذلك كان حظ الجنود المصريين الذين كانوا يحرسون مضايق سينا . فقد ذبحوا من وصلت اليهم أيديهم وهرب من كان لهم حظ فى الحياة وولوا الأدبار وهم لا يلوون على شيء .

وكنت أتمالك شعوري وأحاذر أن يظهر على وجهي أدنى أثر لما بعثته تلك المذابح والفظائع في نفسي . فمن يقود جيشاً إلى ساحات الوغى ويملك زمام الرجال ويلقي بهم بين مخالب الموت وجب عليه أن يغض من أنظاره ويتعامى عن هذه المشاهد المؤلمة التي تبعث الرحمة إلى فؤاده وتضعف من ثباته وقوته .

ووصلنا إلى سفح سينا فتمكنت من مشاهدة تلك الصخور التي ناء عليها الدهر ولم تفلح فيها عاديات الزمن وتعاقب الأجيال. فظلت قاحلة لا يقع النظر فيها على خصب أو زهرة أو أشجار فكانت جدباء عارية ليس فيها من مواهب الطبيعة غير معالم القسوة والشقاء .

وكانت قمم جبال سينا المكللة بالثلج تجذب نظري اليها وتثير اعجابي . ولكنني ما كنت أعود بنظري إلى ذلك الفضاء القاحل المخيف حتى كنت أشعر، على الرغم مني ، بدبيب الخوف المنبعث من ذلك الجبل الشاهق العتيد .

إن من لا يعرف تلك الأنحاء ولم يشاهدها كان لا يستطيع أن يتصور مثل هذا الحصن المنيع الذى يحول دون الوصول إلى الصحراء المتمردة المنبسطة. وكانت غايتنا الوحيدة، التى تبعث الجشع إلى النفوس، ترمى إلى الاستيلاء على مناجم النحاس المنتشرة فى هذه الأنحاء وما تحويه من حجارة الفيروز الكريمة. ثم إننى كنت أرى، إلى جانب ذلك كله، سراً رهيباً مخبوءاً تحت طيات هذا المكان. أو لم يكن فى زمن من الأزمنة الغابرة مقراً مختاراً لأقوام كانوا يعبدون الله دون سواه وظلت أرواحهم ترتاده وتقيم فيه وتبعث الاجلال والاحترام والخوف إلى القلوب منذ القدم وترسل الصواعق و العواصف من قنة هذا الجبل فتدوى فى الصحراء وتمتد إلى الفضاء الشاسع وما وراءه كأنها تحمل صوت الله الواحد القهار.

ولم نترك لفرعون وقتاً ليحشد جيوشه وجنوده وأبلغناه بلسان رسول اننا نوقف هجومنا الساحق وسيرنا

الماحق لو تخلى لنا عن مناجم النحاس . وكنا قد أدركنا بحر ويتى(البحر الأحمر) وانتظرنا رد فرعون لاجتيازه. وتأخر ورود الرد.

فثارت حفيظتنا عليه لاعتقادنا بأنه يلعب بنا ويهزأ منا . وأصدرنا الأوامر بالسير إلى الأمام .

وكان اجتياز البحر الأحمر شاقاً ولكنه تم بنظام . ودهشنا جد الدهشة إذ لم نلتق فى الأراضى المصرية بغير السكان وهؤلاء كانوا يفزعون إلينا ويتوسلون لكى لا نفتك بهم . وكان فرعون قد لجأ على رأس جيوشه إلى الوجه القبلى ليحتمى به ويقاتلنا فيه .

وكنا قد وصلنا إلى الصحراء المصرية ورأينا من الصعب علينا أن ننتظر أية مساعدة من القبائل الموالية لنا لتمدنا بالماء والمؤن وأصبحنا هدفاً لمواردنا فكان لابد لنا أن نعمل بسرعة وبغير ما إبطاء .

وكان هذا الكفن الفسيح الذى نسجته يد الالهة من الرمال الصهباء الموشاة بالرغام الذهبى يمتد أمامنا

حتى الأبدية . وانه لمخيف فى ثوراته الفجائيـــة إذا ما حركته نسمة من الهواء لأنه يرتفع ويهدر ويقفز ويلقى الذعر فى النفوس ويخرب كل ما يعترض طريقه ولا يبالى ، فى حريته الوحشية ؛ أن يصطدم بأى شكل من المخلوقات أو الكائنات . وكانت السكينة مخيمة عليه عند وصولنـا كأنما هو راقد فى هدوء تحت السماء كالبحيرة الراقدة تحت ضوء القمر . فشعرت بانقباض غريب يتملكنى عند رؤية هذا الخضم الرجراج وفكرت فى أن الشعب الذى يملك ظاهرة نادرة كهذه الصحراء لا بد أن يكون شعباً مختاراً ممتازاً . فكم من مدنية منذ فجر الخليقة قد احتضرت وضمها هـذا الكفن العظيم ووئدت فى هذا القبر الفسيح . وأمرنا جنودنا أن يضربوا الخيام فى هذا المكان الفسيح ليستريحوا بضعة أيام من وعثاء السفر قبل الاصطدام النهائى .

لقد وطئت ، فى كثير من الاضطراب المجهول ، أرض المصريين الذين أهاجت ديانتهم وخرافاتهم وآلهتهم

وعقائدهم الفلسفية وطلاسمهم العديدة المعقدة فضولى وأثارت فى نفسى رغبة الاستطلاع .

كانت مصر تجذبنى إليها وتسحرنى بطبيعة أرضها وشكلها الغريب . فذلك الوادى الطويل اللانهائى الذى يخترق النيل فيخصبه تارة ويجدبه تارة أخرى ثم ينحنى على صدره انحناء العاشق ويحنو عليه حنو الوالد . وتلك الآثار المهيبة الرهيبة التى تحليه باجلال وتحمل فى طياتها رمز العظمة والخلود . وتلك الاهرامات المثلثة الملساء الصامتة المتناسقة التى تقى الأموات شرة الاحياء وغدرهم والتى طالما أخفتها أعاصير الزوابع والعواصف خلف ستارها . والمسلات الممشوقة المغطاة بالرسوم السرية الرمزية والزراعة التى تصادف فى كل مكان وعلى مدى بضعة خطوات . والفنون المصرية الدقيقة التى طالما أثارت خيالى كانت تدهشنى وتشغل جميع أفكارى . ولقد طالما ساءلت نفسى عما إذا كان يحق لى أن أحمل اليأس والدمار إلى شعب بلغت مدنيته ذرى العلياء وكنت

أجهل حتى الساعة تطوره المدهش العجيب .

وضربت خيمة الملك على مقربة من أبى الهول فكانت عيناى شاخصتين اليه ولا تجسران التحول عنه .

وكان أبو الهول رابضاً عند حافة الأبدية الهادئة شاخصاً إلى الأمام ناشباً أظافره فى الرمال حيث يختلط رماد الأموات بتراب المدن . وفى عينيه الحجريتين بريق الحلم المجهول وفكرة العظمة الخالدة التى تثير همة الشعب . وفى ابتسامته الأبدية تتلألأ جميع المعارف وجميع الأسحار المدهشة . كان هناك ثابتاً منذ القدم مفكراً فى كل ما رأى وما عساه أن يرى . وفى كل ما يعرف وما عساه أن يعرف . وأصبت بدوار لأن تلك الكتلة من حجر الجرانيت الأصم بدت لى كأعجوبة من عجائب الدهر .

كل شيء كان راقداً حولى فى هذه الصحراء رقود الأجسام فى سكون القبر . فأنسبت خارج مضربى الملكى وساعدنى احتجاب القمر خلف غمامة سائرة فلم تقع على

الأنظار وسرت إلى ناحية أبى الهول وما كدت أن أصل اليه حتى كانت الغمامة قد انقشعت وأخذ القمر يرسل على الصحراء ضوءاً أزرق شفافاً رقيقاً . وكانت جبهة أبى الهول ـ تلك الجبهة الملكية التى عقدت عليها الشموس والأقمار آلاف الأكاليل ـ مكللة بضياء شاحب ومتوجة بتاج من الصمت كأنما هى كانت ترقب الفضاء وتراقب الأعداء .

وأخذت أتأمله باحترام واجلال ولكن فى كثير من الوجل والخوف . وكانت وقفته الصامتة الجامدة وسر مولده وفكرته الخفية قد حملتنى على التفكير طويلا . وتملكنى نوع من القلق أقرب إلى الندم . واستولى على الاضطراب فجثوت عند قدميه وانحنيت حتى مس جبينى التراب . وحينئذ تحركت شفتاى واطلعته، هو الذى كان عليماً بكل شىء ، على مخاوفى وفضولى ورغبتى فى الوقوف على سر حياته ونفسه وقلقى من ابادة شعب عظيم كشعبه . . .

انى أجهل مدى الوقت الذى قضيته فى هـذه الوقفة المتواضعة. فقد سمعت فجأة صوتاً رزيناً رصيناً عميقاً قاسياً كأنه خارج من جوف أبى الهول يهيب بى زاجراً :

ــ بعيداً أيتها الملكة الكافرة الزنديقة التى تجسر على أن تطأ أرض الفراعنة المقدسة لتشفى غلة الخراب ارضاء لغريزتها المدمرة . أى سميراميس . انك لتستطيعين أن تحملى مشعل المدنية إلى شعوب أقل مكانة منك وأوضع قدرا فهناك تحطمين لتشيدى وتحسنى . أما هنا ، فى مصر وهى أعظم من أشور ، هنا عند هذا الشعب وهو أعرق مدنية وأكثر تطوراً من شعبك واجداده الاطلنطين العظماء هم كذلك أجدادك . هنا لا يحق لك أن تبذرى الخراب وتستعبدى شعباً بأسره . ليس من يخاطبك بلسانى هو آمون أو ايزيس أو أوزيريس . ولكن هو الله العظيم . هو الله الواحد الأحد . وهو الذى يأمرك بأن تعودى أدراجك ناكصة . اكتفى بالمعدن الأبيض الذى ستنتزعينه من جوف الأرض فى سينا وارجعى إلى

مملكتك حيث نيران العصيان بدأت تشتعل ويتأجج أوارها . على أنك لو عملت بما ألهمك به الوحى فى الهيكل المقدس لفهمت أن واجبك كان يقضى عليك بعدم الاندفاع فى خطتك . ولكن فى هذه المرة أيضاً تغلبت أنانيتك على حكمتك .

فصمتت مذعورة شاردة :

ـ نيرتيكس ! نيرتيكس ! هذا أنت . لقد عرفت صوتك . لقد عرفت تعاليمك وحكمك . تعال إلى . اخرج من قلعتك الحصينة . تعال !

فلم اسمع جوابا .

وتوسلت أيضاً . وناديت . واسترحمت . ولكن عبثاً .

ولأول مرة فى حياتى تمثل لى العجز عن ادراك غايتى وتحقيق آمالى ورغبتى . ودب اليأس إلى قلبى وأخذت أبكى فى صمت وسكون .

وبدأت زرقة الشفق تتخلل ظلمة الأفق . وسمعت الصوت الخفى مرة أخرى يناجينى :

ـــ إن دموعك يا سميراميس لندوة الهية تكفر عن هفواتك . فقد رطبت قلبك الصلف المتكبر . إن العقل والحكمة يخلفان ارادتك الشديدة الصارمة . عودى إلى بلادك . واسرعى الى درء الخطر الذى تنسج خيوطه فى غيبتك . وانك لتعللين نفسك عبثاً فى عودتى لأننى سأختفى من جديد خلف حجب الفضاء . الوداع . . .

فأسرعت عدوا إلى المعسكر وأيقظت الملك ونقلت اليه كلمات الوحى الخفى دون أن أنبئه بأننى عرفت فيه صوت نيرتيكس . فما أن رآنى مضطربة متلاشية حتى أخذ بتوسلاتى . لأنه كان ، كجميع أفراد جنسنا ، سريع التأثر والاعتقاد بالأوهام والأباطيل .

وعدنا إلى أوطاننا من حيث أتينا .

الرؤيا السابعة والعشرون

فى غضون الأشهر الطوال التى انقضت فى حملتنا على مصر كان نيربال قد أثار الدسائس والفتن بما يشهد له بالهمة والبراعة . وعند ما أبنا إلى بابيلونيا دهشنا من استقبال الشعب لنا مما زادنى اعتقاداً بضرورة وجود المليك بين شعبه وجوداً فعلياً حساساً . إن القيام بعمل مهما كان عظيما وجليلا يعد من الهنات الهينات ولكن الصعوبة المضنية هى فى توطيد هذا العمل والمحافظة عليه .

ومرت بضعة سنوات . واستمر الكهنة فى مناوآتهم الخفية ودسائسهم الخبيثة المضطردة ضد السلطة العليا بحيث لم أتمكن من مؤاخذتهم على شيء لا أقيم عليهم الحجة وأعاقبهم عقاباً مبيناً .

وتقدم نينوس فى السن وبدأ يشكو ويتألم من ركوده وانزوائه فى قصره وعدم قيادة جيوشه الظافرة إلى فتوحات جديدة . وكان نيربال دائب التحريض على الحرب لعلمه بما فى ابتعادنا عن الدولة من تعزيز لسلطته . إلا أننى قد أقنعت الملك بأن الغاية السامية التى يجب أن يوقف عليها جهوده ويفكر فيها ويوليها اهتمامه هى فى حسن إدارة الملك والمحافظة على العنصر الأشورى الذى كان قد تصدع من الحملات والحروب المتتالية .

وتمكنت ، فى قليل من الشهور ، من استرجاع السلطة واسترداد ما فقدته فى غيبتى . وازدهرت مملكتنا وكانت قد اتسعت بفضل البلاد التى ضمت إليه على أثر

فتوحاتنا بحيث لم يعد بين الممالك ما يضارعها إلا مملكة الهند التى سلمت من مطامعنا . على أننى ، بالرغم من رغبتى فى السلم والمحافظة عليه ، بدأت أدبر فى ذهنى الخطة العظيمة لمهاجمة ملك الهند الذى كان يؤثر على نفوذى بسلطته مع بعد الشقة بيننا . ومما يؤسف له أننا كنا لا نمتلك فيلة لمقاومة جيوش الهند. تلك الفيلة التى كانت تهاجم الجيوش كتلة واحدة كأنها جبل يتحرك وتحطم كل ما تصادفه فى طريقها . ولم يكن لدينا إلا جنود على مركبات ورماة نبال يقاتلون على الأقدام .

وبحثت طويلا لأجد حلا لهذه المعضلة فساورتنى فكرة الحصول على جلود الفيلة لأستر بها أجسام الجمال فيعتليها جنودنا ويصبحون بذلك فى مستوى جنود الأعداء وتسهل عليهم مقاتلتهم .

وأصدرت الأمر فى الحال إلى فئة من مهرة الصيادين للتوجه إلى الهند واقتناص أوفر عدد من الفيلة وقدرت عدة سنوات للحصول على ما نحتاج إليه من الجلود . كان

ذلك مضنياً وطويلا ولكن إرادتى كانت تتصلب وتشتد أمام المتاعب والصعاب . ونفذت أوامرى في أشد ما يكون من الكتمان . وفى انتظار الساعة البعيدة التى أتمكن فيها من تنفيذ خطتى كنت أعنى عناية خاصة برقى البلاد وإنماء مواردها .

وكانت متعة الملك الوحيدة التى يرتاح إليها وتلائم غريزته هى صيد السباع فى الآكام فقد برع فى هذا الضرب من اللهو إلى حد لم يكن يجاريه فيه أحد . وإلى جانب ذلك فان حبه لى لم يتأثر ولم تشبه أية شائبة . وهذا ما كان يؤثر فى نفسى ويزيدنى عطفاً عليه .

وكانت جميع نساء البلاط يسلطن عليه أنظارهن الملتهبة بنيران الشهوة ويكشفن له عن حنايا قلوبهن وحنين صدورهن ولكنه كان لا يكترث إليهن ولا يعيرهن التفاتاً . ولم يثن تجنيه نيمور عن عزمها فقد كانت ترود حوله كاللبوءة العاشقة . ان أنانية هذه الفتاة كانت تنفجر فى كل لحظة بحدة متناهية ومع ذلك

كله فانى كنت لا أشعر نحوها بأية غيرة أو يساورنى منها أى قلق لثقتى من اكسير الحب والوفاء الذى كنت أسقيه لزوجى وأجدده له تباعاً وبغير انقطاع . فقد كنت أعرف ان النفس البشرية طائشة مترددة فلا أثق بثباتها .

وكنت أعلم انى إذا أردت أن أظل سميراميس العظيمة والملكة الكاهنة التى يعبدها زوجها ويجلها شعبها ويخشاها أعداؤها فأنه يجب على أن أظل ناعمة البال مشرقة المحيا مهما كلفنى ذلك غالياً .

يجب أن تكون الملكة ملكة قبل كل شىء وفوق كل اعتبار فلا تتأثر ولا تهتم بسفاسف الحياة وصغائرها . فهى فى حاجة إلى استقلال أفكارها وهدوء فؤادها . وإلا فكيف عساها أن تحل المسائل العويصة المعقدة التى تعترض حكمها فى كل يوم ؟ وإنه لمن حسن الحظ أن نينوس كان قد ترك لى مطلق الحرية فى حكم البلاد كيف شئت . ولقد كان يصعب على تماماً لو شاطرنى

اعباءه ومسئولياته لأننى أقدر كما أسلم أن أعباء الحكم والسلطة يجب أن يتولاها ويتحمل عواقبها فرد واحد وإننى إذا كنت قد سلمت بتأثير نيرتيكس علىّ يوماً فما ذلك إلا لأننا كنا نتفق فى التفكير ولان روحى لم تكن إلا امتداداً لروحه .

وشعرت بتطور جديد فى نفسى منذ الساعة التى فارقنى فيها نيرتيكس وأخذت أتخبط وحدى فى شئون الدولة وما يتخللها من المتاعب والصعاب . وبدأت زهرة الشفقة ـ تلك الزهرة الرقيقة النادرة فى ذلك العصر ـ تتفتح فى فؤادى عند ربيع حياتى فلم أعد أحسن توقيع القصاص والعقاب بتلك الشدة ولا بتلك السهولة التى تعودتها فيما مضى فقد كانت كلمات سماس وأقوال نيرتيكس تترددعلى ذهنى : « سميراميس . احذرى أنانيتك » فكنت أحاول وأجتهد فى خنق تلك الأنانية لأكون شفيقة رحيمة .

وكنت أميل إلى العزلة وألجأ إلى الوحدة أكثر من قبل ، فبينما كان نينوس منهمكا فى صيد السباع كنت أحوم وحدى فى حدائق المعلقة تتقدمنى فهدتى ويحيط بى يمامى الذى كان ينشر فوق رأسى قبة من اللجين.

وفى ذات يوم من أيام الصيف اشتدت وطأة قيظه لجأت أتفيأ ظل غيضة كثفت أغصانها واكتظت فيها النباتات النادرة وتعانقت أزهارها حتى لم تترك لأشعة الشمس منفذاً. وما أن وطأت قدمى أديم تلك الغيضة حتى طرق سمعى همس فاسترعى انتباهى. وكانت أول حركة بدرت منى هى أن أرفع يدى إلى خنجرى وأتناول صفارتى بيدى الأخرى لأستغيث بجنود حرسى لأن دخول هذا المكان كان محظوراً إلا عن الملك وولدى . ولكن خيل إلى أننى عرفت فى هذا الهمس الخفى صوت نينياس وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره وكان الصوت يقول :

— تيرانا . تيرانا . لقد خاطرت بمجيئك إلى هنا

للاقاتى . وخالفت الخطر القاسى المستبد . أو لا تعلمين أن أمى شديدة الغضب عاتية وأنها إذا اكتشفتك هنا كان جزاؤك الموت ؟

كانت تيراتا إحدى إموانى . وكانت الطبيعة قد امتازتها بقسط وافر من الجمال وحبتها بهبة يندر وجودها فى بلادنا فخلتها بعينين زرقاوتين تتعارضان تماماً مع شعرها الاسود القاتم كالليل . وكانت إبنة أمير مقاطعة هيركانى الذى أخضعناه فيما سلف . فأصغيت بشغف :

— أى أميرى . أى نينياس الرقيق. لقدقابلت نظراتك وفهمت لهجتها ! فأية قوة بشرية تستطيع أن تحول بين قلبين يحاولان أن يتحدا وينبضا معاً . أوتظن أن امرأة تحب يمكن أن ترتعد أمام الخطر ؟ ولا تدرى أننا نفضل الموت على فضاء النفس ؟ أى أميرى الرقيق اللطيف . أى حبيبى العظيم. أى مليكى فى المستقبل القريب . إننى أهواك وأنت تعرف ذلك . وأريد أن أكون لك اليوم وإلى الأبد فى الحياة وإلى الممات .

فأجابها نينياس :

ـــ يا محبوبتى .

وأزحت بعض أغصان الشجر فرأيتها تضمه بين ذراعيها بشهوة . ثم استطردت فى الحال :

ـــ أنت تعلم يا نينياس أننى لست أمة حقيرة كغيرى من الأموان . إننى من عنصر ملكى كريم . ولم يعش قلبى إلا طموحاً إلى العلياء . ولم تتردد أنفاسى فى صدرى إلا لأستنشق شذى المجد وعبير المثل الأعلى . لسوف تتزوجنى يا نينياس ولسوف أكون ملكة على أشور فأعينك على قيادة شعبك وحكم بلادك .

وهنا خفت صوتها فلم أستطع أن أميز ما كانت تقوله ولم أسمع ما كانت تغريه به . وأجابها ولدى بعد قليل من الصمت :

ـــ حقاً إن والدى شيخ ولكن أمى . أواه .. أمى . انها أصغر منه بخمسة وعشرين عاماً وإنها لتأبى أن تموت ويقيناً أنها لن تتنازل لى عن الملك حتى لو اضطرت إلى

ذلك . أوه ! هذه المرأة القوية الرهيبة . لشد ماأخشاها . لشد ما أشعر بأنى عاجز وضعيف عن مقاومتها والوقوف فى وجهها إنها تؤثر فى تأثيراً عجيباً حتى لأشعر بأنها غريبة عنى . إن طمعها وأنانيتها لا يتورعان عن سحق أية عاطفة أخرى فى فؤادها ومحو كل أثر لها فمن يساعدنى على الانتصار لحقوقى ؟

فصاحت تيرانا بحدة :

ـــ أنا ؟

حقاً لقد كانت جميلة فى وقفتها التى كانت تتحدى بها القدر وذراعيها العاريتين وجسمها اللين لا يستره إلا قميص بلون سماوى من نسيج شفاف !

كانت باهرة فى شبابها عظيمة فى رغبتها . وارادتها كانت تطفر من نظراتها وحركاتها ففهمت ماتنطوى عليه نفسها من عظمة وقوة إغراء

واستطردت :

ـــ أجل أنا . أنا إبنة الأمير اليخ المحبوبة ووريثته

الوحيدة المتشبعة بتقاليده. أنا التى ولدت على ضفاف بلاد باسمة زاهرة وترعرعت فى أحضان الترف والحنو. أنا تيرانا التى شربت - مذ أن وقعت فى أسر أمك التى اكرهها وأمقتها - كأس الألم والحزن حتى الثمالة، أنا التى تحملت الذل بأنواعه وقاومت التجارب بآلامها الفظيعة وثوراتها المحطمة المخيفة. أنا التى حافظت على عفتى كالزهرة لأقدمها لك فى كأس الحب. أنا التى أملت دائماً وعللت نفسى بحظ سعيد أنعم به يوماً فيمحوا آثار تلك الساعات الرديئة المؤلمة. أنا تيرانا. فأنا أحبك حباً يمتزج بدمى. حب شهوة عنيفة تأخذ علىّ جميع مشاعرى ولكننى لن أكون لك ولن تستمتع بى إلا إذا أقسمت على التعويذة المقدسة التى تحلى بها صدرك بأنك ستتزوجنى سراً وأننى سأصبح يوماً ملكة إلى جانبك.

ورأيت التردد ينطبع على وجه نينياس. لقد كان يمثل أباه ولكنه كان أكثر نعومة منه ولا يشبهه لا فى بنيته ولا فى أخلاقه.

ثم رأيته يرفع يده اليمنى ليتناول التعويذة . وهى تمثل الختم الاشورى الذهبي المستدير بأجنحته المبسوطة كذنب العصفور . لقد نقشت هذه الأسلحة على أعلامنا مذ أن اعتليت عرش الملك وتوجت ملكة . وهى ترمز إلى شخصى الملكى فى صورة يمامة مجردة .

وكاد نينياس يحنث ويدنس رمزى المقدس.

فخرجت فجأة من مخبأى وقبضت بعنف على ذراع ولدى وأخذت أحدق النظر فيه وأنا صامتة .

لابد أن منظر وجهى كان مخيفاً فى تلك اللحظة لأن نينياس خرّ ساجداً وهو يرتعد ويتمتم كلمة واحدة

— الرحمة ! الرحمة !

فأرغمته على إحناء رأسه إلى الأرض وَوضعت قدمى على نحره دلالة على سلطتى وخضوعه وقلت بلهجة حاولت أن أجعلها هادئة :

— ولمن تطلب الرحمة ؟ ألأجلك أنت ؟ أم لأجلها هى ؟

وكانت تيرانا لم تنحنى ولم تخفض رأسها أمامى وقاومت غضبى بجرأة أعجبت بها فى سريرتى ، وأجابنى نينياس فى همس يكاد لا يفهم :

— لا لأجلى . إنما أطلب الرحمة والحياة لأجلى : لأن حياة أمة قل أن تؤثر فى ولا تهمنى .

فصحت به :

— نذل ! سافل ! أونسيت الكلمات التى نطقت بها منذ لحظة . واللهجة التى تكلمت بها عنى . والخطط التى سمحت لهذه المرأة أن تضعها أمامك ؟ ألا ارتعد أيها الابن العاق فأنت رجس وعار على جسمى وأحشائى ونفسى ! لسوف تنال عقابك بما تستحقه !

وسكت لأجمع شعث أفكارى وأقرر قراراً حاسماً . لقد كانت العواطف المتناقضة المتباينة تتصادم فى ذهنى . وكان فؤادى الأموى يتمزق من خيانة ولدى .

ولاحظت فى كثير من الألم والحزن ان الملوك لا يمكنهم أن يستعينوا لحظة بصلة الرحم لأن الجشع

والمطامع تمحو كل أثر لذلك فى هذه الحياة . وفى تلك اللحظة أيضاً غبطت حظ أوضع امرأة من نساء رعيتى اللائى لم يكن لأبنائهم من الأسباب التى تحملهم على اضمار الحقد لهن فيتمنون موتهن قبل الميعاد .

وتمالكت نفسى فى النهاية وقلت لابنى بصوت رزين :

ـ عد إلى القصر أيها الولد الجحود والابن العاق وانتظر قرارى .

فانتصب نينياس وأسرع عدواً ولم يلبث أن اختفى عن أنظارى خلف الأغصان والأشجار ولم يلق ولو نظرة بسيطة على شريكته .

وتأملت وجه تيرانا فألفيتها لم تتغير ولم تغير من وقفتها . لقد تعمدت أن تتحدانى حتى النهاية فكانت جميلة فى شجاعتها عظيمة فى أنفتها رائعـــة فى كبريائها . ولا أدرى لأى سبب تمثلت لى صورة نيرتيكس فى تلك اللحظة وحالت بينى وبينها . لقد خيل إلى أننى أسمع صوته الرصين يحرضنى على الحلم ويحملنى على الشفقة والعفو .

على أننى لو قدر لى أن أقف موقف تيرانا لما فعلت إلا ما فعلت . وكنت مثلها أتحدى استبداداً مثيراً للعواطف والنفس . وكنت مثلها أرفض أن أذل كرامتى أو أحط من أنفتى وكبريائى . ورفرف الصمت بجناحيه طويلا فوقنا وتقابلت نظراتنا كأنها شفرات خناجر ماضية لامعة .

وقلت لها :

ـــ أنت تعلمين أنك فى قبضة يدى وتحت رحمتى . لقد حق عليك الموت مرتين . موتاً هادئاً وموتاً مخيفاً عاتياً . جزاء لك على جرأتك وأنت أمة وضيعة وطموحك بأنظارك إلى الأمير نينياس وتحريضه على خيانتى .

فأجابتنى بلهجة المتشفى وبدون أن تغض من أنظارها أمام نظرى :

ـــ إننى أعرف ذلك . لقد كان إعجابى بهذا الفتى يزداد ويتعاظم وإنى لآسفة على أن ولدى لا يتمتع بمثل أخلاقه الكريمة وأنفته .

فانتزعت من أصبعى دبلة ذهبيـــة نقش عليها ختم أشور ومددتها إليها وقلت لها :

ــ تيرانا. إننى أصفح عنك. وإنك لتستطيعين بفضل هذه الدبلة أن تغادرى القصر الملكى بلا معارض فتنجين من موت محقق . أظن أن تصرف ابنى معك قد شفاك من حبك ! خذى أيضاً هـذا العفاص المملوء بالذهب ولـكن لا تحاولى أن تعبرى حدود مملـكتى مدى الحياة . اذهبى !

وبلغت دهشة تيرانا من حلمى الذى لم تـكن تتوقعه حداً ظلت معه بضعة لحظات مشدوهة مخبولة فلم تستطع أن تمد يدها نحو الدبلة والعفاص فألقيت بهما باحتقار تحت قدميها وتظاهرت بالانصراف . حينئذ دنت منى وانحنت أمامى وتمتمت فى شعور عميق وبصوت مخنوق وعبرات تسيل :

ــ أيتها الملكة العظيمة . إننى لأشكرك !

الرؤيا الثامنة والعشرون

كنت محطمة مصعوقة ا ولدى . دمى وثمرة حبي .
ولدى الذى حبيته . نانى وشملته بعطفى ورعايتى . ولدى الذى يمثل أمل أشور ومجدها والذى حاولت أن أنقل إليه تقاليد عشيرتى وولاية عهدى . نينياس الذى كان يحبه أبوه حباً جماً والذى علقت عليه كل آمالى وجاهدت طوال حياتى بهمة ونشاط فى سبيله . ولدى الذى أعددته لمتابعة عملى . ولدى الذى حملته فى احشائى وأرضعته من

ثديي وغذيته بلبني . كيف يمكن أن يتكشف - في هذه السن فهو ما زال مراهقاً يافعاً - عن نفس خبيثة خسيسة وقلب فظ غليظ . ويثور على العواطف النبيلة الطبيعية المقدسة . في السادسة عشر من عمره كان جباناً نحو المرأة وخائناً نحو أمه !

لقد أصدرت لشعبي شرائع جديدة . وصيرت مملكتي في مقدمة ممالك العالم وأعظم شأناً منها وأبعدها شأواً . ورفعت اسم أشور وحصنت بلادي وزودت وطني باصلاحات عديدة جميلة . وجعلت الأعداء يرتعدون فرقاً ووجلا . واكتسبت عن جدارة واستحقاق لقب سميراميس العظيمة الذي حباني به العالم وأنا لم أزل على قيد الحياة . وما كل ذلك إلا ليثور علىّ ويحاول أن يسلبني سلطتي وينبذني عن حياته من هو شطر من لحمي ودم من دمي وكائن منبثق مني ومن سيكون يوماً وارثاً لاسمي العظيم . لاشك أن نينياس كان يجهل عظمة نفس من أعقبته . وينكر طبيعة المرأة والأم لأن كل شيء يرجع

إليها وكل شيء يصدر عنها . فأياً كانت هذه المرأة : من البشر أو الهة . ملكة أو خادمة . جميلة أو بشعة . فهى الرابطة بين الرجل والله . بين القوة والمثل الأعلى .

إنها تمثل الخصب الأبدى . فالابن رضع من لبانها ـ والرجل يحيا بحبها . فكل شيء فيها هو الكل فى الكل . إن الغريزة والاقناع والايحاء تقوم لها مقام الدرع لوقايتها وحمايتها . لقد فهمت منذ بدء الخليقة مهمتها السامية على الأرض . فالحب الأموى عظيم حتى عند الحيوان فاللبؤة تدافع عن جروها حتى الموت .

إزاء هذه الخيانة . إزاء جزم ولدى وعصيانه الصارخ كنت أرانى أتخبط بين آلام فظيعة . كنت أسائل نفسى كيف استطاع هذا المخلوق الخارج من أحشائى أن يثور علىّ . وألا يحافظ ـ بالرغم من فحشائه ـ على الاحترام الواجب نحو أمه كما تحافظ نفس المخلوق الفاسـد على خوف الله .

وبالرغم من موقف ولدى وشناعته إزائى فأننى لم

أتمكن من التصميم على رأى فى أمر معاقبته أو حاولت بجميع الوسائل أن أخفى على الملك تصرف ابنه المعيب الشائن . إن الغريزة الأموية الراقدة فى دخيلة نفسى تحت ستار مشاغلى الملكية قد استيقظت فجأة ثائرة صارخة . ففى تلك اللحظة من حياتى لم أعد تلك الملكة المتكبرة الصلفة . لم أعد إلا ذلك الكائن المخدوع التعس إلى حد الشقوة واليأس .

كنت قد وصلت بأفكارى إلى هـذا الحد فاذا بمافروداك ضابط حرسى قد دخل على لينبئنى أن جماعة من نساء بابيلونيا يتوسلن فى المثول بين يدى . ففكرت فى أن جميع هذه النساء أمهات وسمحت لهن بمقابلتى .

وانتقلت لذلك إلى حجرة العرش .

وكانت هذه النساء حديثات السن . وهن يمثلن جميع الطبقات . وتقدمت إحداهن ـ وكانت أكبرهن سناً وأكثرهن جرأة وشجاعة ـ وانحنت عند الدرج الأول المؤدى إلى عرشى . وانحنت الباقيات مثلها وانتظرت أن

آذن لها بالكلام . فقلت لها :

— ماذا تطلبين من الملكة ياامرأة ؟

— ما جئنا نطلب من الملكة يا سميراميس العظيمة . وإنما جئنا نلتمس من الأم ونحن صارخات جاثيات . فبعد بضعة أيام . عند ما تنقاب الشمس فى دورانها إلى أبعد مدى من خط الاستواء يبدأ موسم تقديم الذبائح والقرابين

وهنا اختنق صوتها وبدرت منها زفرة حارة . ثم استطردت بصوت متألم محطم :

— أنت تعرفين أيتها الملكة تلك العادة الوحشية القاسية التى تقضى علينا بتقديم أبكارنا ذبيحة للآلهة . لم تجسر نساء رعيتك إلى الآن على رفع أصواتهن بالشكوى لأن قوانين البلاد صارمة . وأنا أعلم ذلك . فاذا ما كنا نجثو اليوم تحت قدميك فلأن العالم بأسره يعجب بحكمتك وحلمك ياملكة أشور وكاهنتها العظمى . فأنت أم . أى إنك رحيمة شفيقة . فيامن تحكمين وتسهرين على سعادة رعاياك . أنت أيها الملكة السامية العظيمة الكريمة بفضل

مولدك الالهى الذى يجعل قلبك رقيقاً . ألا انظرى إلينا بعين الشفقة وتعطفى على يأسنا وشقائنا . نحن أمهات بائسات يائسات نحب أبكارنا . لسوف ينتزعون ثمار حبنا بشدة فنحرم من عبادتنا الأموية وتهراق دماؤهم الطاهرة البريئة لتستدر رحمة السماء وحسناتها على أشور ولكن هل يمكن أن تسعد بلاد وتنمو وتزدهر إذا كانت مثل هذه العبرات تسيل ومثل هذه القلوب تئن وتتضور؟

وسكتت المرأة وانتحبت بقية النساء .

لأول مرة منذ وجود أشور رفعت النساء أصواتهن ليستنجدن بحلمى .

وتألمت من صميم فؤادى . وكانت حكمتى وبعد نظرى نائيان عنى تماماً فى هذه اللحظة الرهيبة وتمثلت لى صورة ابنى المتمرد وقلت لنفسى إنه ربما كان من واجبى أن أضحيه فى سبيل الشريعة البربرية كبقية أبكار المواليد لأشترك مع هاته النساء البائسات . ولكن سرعان ما نبذت عنى هذه الفكرة .*واستطردت المرأة المتكلمة

— أى سميراميس العظيمة . أنت أم . فى استطاعتك أن تفهمينا . فى استطاعتك بغير مشقة ولا عناء أن تشاطرينا أشجاننا وأحزاننا . فكرى فيما كنت تعانينه لو انتزع ابن أحشائك من بين أحضانك الضعيفة ؟ هذه العادة الوحشية سنها الرجال وما كانت امرأة لتسمح قط بأن تضحى بابنها . أى سميراميس العظيمة . إننا نتوسل إليك!

ولم يعد يسمع إلا شهيق النساء ونحيبهن فى وسط السكون السائد فى تلك الحجرة الفسيحة حيث كان ملاك الموت يرفرف على الرؤوس بجناحيه .

وانتصبت بغتة على قدمى وصحت بهن وَأنا أشير إليهن إشارة الرحمة والشفقة .

— إذهبن بسلام يا نساء بابيلونيا فلن يصاب أبكار أطفالكن بسوء ولن يمسهم ضير وَلا أذى .

الرؤيا التاسعة والعشرون

مضى وقت غير قصير وأنا أشعر بالمخاوف السوداء تساورني وتضطهدني . فكنت لا أدري إلى أي شيء أنسبها ولا بماذا أعللها . على أن عظمة حكمي كانت قد وصلت إلى أوجها . وحب شعبي لي كان يضارع حب الملك لي إن لم يزد عليه ويزاحمه . وكنت منذ قليل من الوقت قد تأكدت من شدة تأثيري على الشعب

حدث ان الكهنة أثاروا في الخفاء فتنة كادت أن

تتجه اتجاهاً خطيراً . وحاول فرسانى أن يعيدوا الأمن إلى نصابه بقتل الثائرين برماحهم . وســـالت الدماء فى بابيلونيا فكان منظر الدم الذى يلطخ أعتاب الطرق يهيج ثائرة الشعب ويضاعف من قسوة الجند .

وتصاعدت أصوات المهاجمين والجرحى حتى بلغت القصر مهددة متحدية . فكانت كهدير الصاعقة والبحر الزاخر أو انفجار عناصر الطبيعة . وتكاثر عدد الثائرين فدحروا الجند واحتلوا الساحة وبدأوا يهاجمون القصر الملكى .

فقلق الملك كثيراً . ورجانى أن ألجأ إلى نهاية القصر حيث يوجد مخبأ خفى يصعب تحطيم أبوابه النحاسية والوصول إليه . ولكننى لم أصغ إلا لالهامى واندفعت وحدى إلى مدخل القصر بين العمودين الكبيرين المجنحين والثيران ذات الرؤوس البشرية .

وكان الشعب الثائر يهدر كالوحش المفترس ويتسلق السلم الكبير المؤدى إلىّ . فحدقت فيه بنظرات

هادئة ولكن شديدة قاسية وسددت إليه سهام سلطتى الحاكمة الغاشمة وقوتى المحاربة القاهرة ونشاطى العجيب الساحر .

وكان الرجال يحملون الأدوات والآلات الزراعية والبلط . ولكنهم ما كادوا يصلون على قيد خطوات منى حتى وقفوا كأنهم صعقوا وتركوا ما بأيديهم وبدرت من أعماق صدورهم المتعبة صيحة حنو وإعجاب :

— سميراميس ! سميراميس ! سميراميس ! ما أجملك !

وأخمدت الفتنة . . . كان يكفى أن أظهر للشعب لاقمع الفتنة وأطفىء نيران العصيان والثورة .

على انى بالرغم من انتصارى لم أستطع أن أهدىء من قلقى . فقررت أن أنزل إلى الناؤوس . لشد ما تألمت نفسى وأنا أقطع هذا النفق المظلم اللانهائى . وجاهدت كثيراً لأدرك غايته ولكننى عند ما أردت أن أفتح الباب المؤدى إلى المظلة وجدت مشقة كبيرة حتى كدت أن أعود أدراجى .

وفى النهاية فتح الباب الثقيل وأحدث صوتاً أثلجنى

فى مكانى من شدة الذعر . وكانت الظلمة الكثيفة مخيمة على جميع أرجائه فلم أستطع أن أتبين جدران الناؤوس ولا هيكل الحجر المقدس . فذعرت من هذا الفأل الموحش وعدت أدراجى وأنا أعدو ونسيت أن أوصد الباب خلفى .

وما وصلت إلى مخدعى حتى ارتميت على إيوان . ومكثت وقتاً غير قصير حتى عاودتنى سكينتى ولكننى شعرت بأن مصاباً كبيراً يتهددنى . ولأول مرة فى حياتى لم أجد من نفسى القوة لأقاوم أو أناضل .

وأدركت إذ ذاك ان علمى وتعازيمى السحرية لن تنفع فى الحياة لحظات تكون الغلبة فيها لأحكام القدر .

وكان الملك قد ذهب إلى الصيد والقنص على صهوة جواد جميل تتبعه حاشية كبيرة. وكان الأسد محبوساً فى قفص كبير وضع على اربعة عجلات تجرها جياد فقئت أعينها حتى لا تبصره وتجفل . فكانوا إذا أدركوا مكان الصيد وضعوا هذا الصندوق فى نقطة معينة . فيقصده الملك من الجهة المقابلة له ورمحه فى يده متأهباً لمغامرة غريبة. وكان

أحد العبيد جالساً فوق الصندوق فيفتح الباب ليخرج الأسد . .

وما أن يرى الوحش نفسه طليقاً حتى كان يقف فجأة كأنه يتخذ لنفسه قراراً ثم يقفز بغتة فلا يعلم أحد إن كان سيقفز على رأس الجواد أو يقف حائراً متردداً .

وكانوا يتركون هذا الوحش عدة أيام بلا طعام قبل حفلة الصيد . فاذا فوجىء بجواد وفارس يقتربان منه فانه ـ فى العادة ـ يقفز بغضب وحنق ، على فريسته التى راها أمامه على غير انتظار ، فاغر الفم دامى العينين ، أشعث الشعر ضارباً بذيله الهواء . فكان على الصياد الماهر أن يجيد اختيار اللحظة التى يقترب فيها السبع منه لاقتناصه فيغمد رمحه فى فمه بغير ما تردد أو وجل . فاذا أضاع هذه الفرصة جمح جواده بالرغم من وجود العصابة على عينيه وعرض بنفسه إلى خطر داهم قل أن ينجو منه إن لم يبادر من معه من الرجال إلى إنقاذه .

وكثيراً ما كنت أرافق نينوس إلى مثل هذه الحفلات .

ونجحت مراراً فى صيد بعض الوحوش الكاسرة . فقد كنت أجيد ركوب الخيل ولا أعرف الخوف ولا الوجل

أما فى ذلك اليوم فاننى شعرت ـ بعد أن تناولت شراب الصباح ـ بثقل فى جميع أعضائى .. وعرفت فيما بعد أن الشراب كان يحوى مادة مخدرة ـ فلم أتمكن من مرافقة الملك الذى كان قد أعد العدة ليتغيب عدة أيام بعيداً عن بابيلونيا .

وقصدت الحديقة لأستريح فأزال عنى نسيمها العليل خمولى وجمودى وتأهبت لألحق بزوجى . وإذا بقطعة من الطوب لفت عليها أوراق النخيل تسقط من أعلى السور عند قدمى. فتناولتها بغير ما اهتمام. ثم استرعت أنظارى حروف منقوشة على الورقه فتلوتها وقرأت :

« أيتها الملكة . إن الملك غير مخلص لك. فهو لا يقضى »
« أوقاته كلها فى الصيدكما تتوهمين. فهو فى هذه اللحظة يوجد»
« بين ذراعى امرأة تهواه منذ أمد بعيد. فاذا ما استدعيت »
« إمواتك فسوف يتضح لك أن احداهن متغيبة . ان »
«مافروداك ضابط حرسك يعرف أين يوجد الملك فى هذه»
« اللحظة »

فشعرت بالأرض تميد تحت قدمي. وانتابني دوار ثم سقطت بلا وعي على الأرض. وعند ما ثبت إلى رشدي أدركت فظاعة الحقيقة.

كيف؟ أو يمكن ذلك؟ نينوس زوجي يحب امرأة أخرى بعد اتحاد عشرين عاماً؟ هو. الذي كنت أعرف أدق خفايا قلبه وحنايا ضلوعه، وخبيئة أسراره ومطامحه ورغباته. هو الذي شرب اكسيري الذي أعددته له كما أريد فكان يحيا من موارد حياتي كما يحيا النبات من الهواء والشمس؟

استنكرت هذه الفكرة باشمئزاز وقطعت طريق الحديقة المنحني وأنا أعدو عدواً سريعاً.

واستدعيت مافروداك. وانزويت وإياه في مخدع احكمت ايصاد منافذه وفاجأته بقولي:

— تكلم فأنت تعرف.

كانت السنين قد مرت على مافروداك ولكنها لم تؤثر في جمال رجولته. فسددت نظراتي إلى نظراته بتلك الشدة والحدة التي كنت اجيد تصنعها كلما حاولت أن أصل بها إلى أعمق مدى من نفوس أعدائي وأستطلع خباياها وأسرارها.

وكان جاثياً عند قدمي فبدأ حديثه بصوت مضطرب:

— إنني لأهب حياتي لو استطعت أن أظل صامتاً. ولكن إذا أنت أمرت أيتها الملكة . . .

فأجبته بأمارة وعظمة.

— إنني آمرك.

فقال بصوت خافت:

— إذن. إن الملك، مولانا، يحب احدى إمواتك.

فصحت بغضب:

— أيتهن؟

— لا أدرى. ولكن في استطاعتك استدعائهن لتعلمي.

— فليكن! جئني بهن جميعاً!

وما هى إلا دقائق معدودات حتى جاءت جميع نساء قصرى ساعيات وجثون عند قدمى فى هيئة وادعة. فأشرت اليهن بالوقوف .

واستعرضتهن وأنا ألهث فألفيت أن إحداهن كانت غائبة : نيمور

فى تلك الآونة ترددت على ذاكرتى كلمات نيرتيكس « سيان كانت أمة فانها مع ذلك امرأة وليس نينوس إلا رجلا . »

يالله العظيم ! لو أننى انتصحت بنصح هذا الحكيم !

لو أننى أقصيت هذه الفتاة المشئومة !

وصحت متألمة :

— وأين نيمور ؟

فلم يجد سؤالى صدى لجواب من الاموات. فصرفتهن وما أن اختليت بمافروداك حتى قلت له محتدمة محمومة :

— اسرع . تكلم . أين هى . هل تعرف ؟

— بين أحضان الملك. أو ، قل ما يكون ، هكذا اعتقد

فلم أستطع كظم غيظى وحفيظتى:

ـ لئن كنت تكذب، أيها الكلب القذر . فى اتهامك لمليكك بمثل هذا الاتهام الجرىء، لأمزقن جسمك غداً، أمام قصرى، إرباً إرباً . افصح .

ـ أى سميراميس العظيمة . لو تنازلت بمرافقتى لقدتك إلى المكان الذى يلتقى فيه الملك بنيمور اليوم . فاذا كنت كاذباً فانى أستسلم للعذاب صاغراً . ولكننى سأعيش . وا أسفاه ! لأن عينيك ستشاهدان منظراً مؤلما .

ـ وكيف تعرف مخبأ الملك ؟

هنا تردد مافروداك بضعة لحظات كأن حرباً يشتعل أوارها فى نفسه ثم استطرد :

ـ إن إخلاصى فى خدمتك أيتها الملكة قد كشف لى عن دخائل نينوس وما يدبره فى الخفاء . لقد سمعت حواره مع ...

فقاطعته صائحة ثائرة:

ـ كفى !

ثم استطردت وأنا ألهث متألمة :

ـــ سريعاً . فلنذهب سريعاً . أرشدني إلى المكان إذا كنت لم تكذب .

ـــ وإذا كنت لم أكذب أيتهــــا الملكة . . . فهل تحبينني في النهاية ؟

فلم أجبه . وهل تراني سمعت قوله ؟ فكرة واحـدة كانت تشغل ذهني وتسد على سبل التفـكير والأصغاء . وازدادت ضربات قلبي حتى كادت تمزقه : خيــــانة زوجي !

وبعد أن سترت وجهي بوشاح قاتم تبعت مرشدي . فكنت أسير إلى جانبه صامتة في هـذا النفق المظلم . وكانت الأفكار التي تهاجم نفسي كثيفة مدلهمة مترددة إلى حد انني كنت أجـد عناء في جميع شتاتها . وفي النهاية وصلنا إلى وضح النهار واخـترقنا حقلا وعراً قاحـلا ثم بدت لنـا غابة من أشـجار النخيـل تلتها واحة غناء .

وهناك ، تحت ظلال الأغصان الكثيفة . وقع نظرى على كهف وفى فيأة من هذا الكهف رأيت الملك وهو يضم نيمور بين ذراعيه . فتملكنى الذعر ومرت أمام عينى سحابة من الدم . وتلاشت كنوز الحكمة والثبات التى كنت قد جمعتها فى كثير من المشقة والعناء وتملكتنى فى تلك اللحظة المشئومة نزعة الشهوة العمياء والأنانية واستأثرت بى فأثارت حفيظتى وحقدى فقبضت على خنجرى لأستنجد بظلال الموت وظلمته وأستر بها هذا المنظر المخيف الذى يمثل الحياة . فأوقف مافروداك ذراعى ووضع يده على فمى ليمنعنى عن الصراخ . وكانت إشارته آمرة سريعة نشأ عنها شجار بيننا لم يدم طويلا . ولكنه كان أقوى منى . فرفعنى عن الأرض وحملنى بين ذراعيه ولم يتركنى على الرغم من مقاومتى العنيفة وتمزيقى لجلده بأظافرى لأسترد حريتى . وعاد أدراجه من حيث أتينا وحملنى إلى القصر وهو يضمنى إلى صدره . وكان يتمتم فى أذنى ألفاظاً

معسولة غرامية . ففكرت لحظة فى أن أستسلم له لأطفىء غلة انتقامى ثم فكرت فى ان الانتقام بهذه الوسيلة الوضيعة السافلة لا يمكن إلا أن يضاعف يأسى . فنبذت هذه الفكرة عنى .

ووضعنى مافروداك فى مخدعى ثم جثا أمامى وتمتم :

— أيتها الملكة ! هل أنت مسرورة من خادمك ؟

فأمرته بأن يتركنى فقد كنت فى حاجة إلى الانفراد والعزلة .

الرؤيا الحادية والثلاثون

كل ما كنت أحب . كل ما كنت أؤمن به . كل ما كنت أعرف من العلوم . كل ذلك قد انهار فجأة وتلاشى في هوة القدر السحيقة المدلهمة .

أنا سميراميس العظيمة ، ابنة الالهة دركيتو ، ملكة أشور وكاهنتها . قد زال سلطاني على الأشياء والحوادث فلم تعد تأتمر لي ولم أعد أسيرها . لم أعد في تلك اللحظة إلا حطاماً تتجاذفه الأعاصير والزوابع . لقد شعرت

بانني فقـدت سلطتي . تلك السلطة التي كنت أعتز بها فخانتني الآن ولم تدر أعني غائلة القدر .

إلى أي حد وصلت . وأي شيء أصبحت ؟ إن أنا إلا امرأة عادية خدعها زوجها . ومخلوقة شقية تعسة هوت من علياء مجدها إلى أحط دركات اليأس والشقاء !

رياء في رياء . كل شيء حولي كان زائفاً ! كل شيء كان زهواً باطلا ! حتى الاله الذي أؤمن به لم يكن إلا وهماً كاذبا . والسحر الذي كنت اعتقد انه كلمة الله في أرضه وكنت له كاهنة وفـيّة مخلصة . لم يكن إلا سراباً خادعا زائلا . .

لقد خدعتني السوائل السحرية التي كنت أجهزهـا وأسقيها لزوجي لأضمن وفاءه . وانهار نصب الايمان الذي أقمته في هيكل الحب بنشاط وحماس فكان دليلا قاطعاً على الخيانة والغدر . وا أسفاه ! كل ما في هذا العالم ليس إلا نتيجة ضئيلة للأوهام التي نغزل خيوطها الواهية . والكمال الذي ننشده لنخدع أنفسنا . والأمل الذي نتعلق بحبـاله

فيكذبنا ويخدعنا. لا شيء! كلا. لا أثر لشيء في الوجود. لقد عرفت كل ذلك في النهاية! إن جهودي المتواصلة ومثابرتي على العمل لتوسيع نطاق مملكتي. وجهادي في سبيل مجده. وعطفي الصادق على نينوس ومعارفي الفلكية التي كانت تزيد علومي. وأسرار السحر التي وقفت على خفاياها وكنت أستعملها في أغراض شريفة سامية. كل ذلك لم يكن إلا وهما وسراباً خادعاً! في أقل من لحظة هويت من أعلى قمم المجد والايمان لأتحطم على الأرض كالحشرة الضئيلة المسكينة.

أواه! لقد كنت أختنق. كنت احتضر. كنت أشعر بأن أفكاري قد شردت وحكمتي قد خذلتني وتوارت عني إن طيبة قلبي وكرمي وحرصي ورجمي بالغيب. وتاج الملك. وشهرتي كملكة عظيمة. وطموحي إلى العلياء، وكل ما شعرت به وأحببته وألهمته وأدركته وخلقته. كل ذلك قد زال وأمحى في طرفة عين. أو أكون ملعونة؟ أو أكون منبوذة؟ أمن الضياء الساحر الخلاب الذي كنت

أنعم به أرانى الآن أتقلب فى الظلمات الكثيفة المدلهمة . لم أعد إلا مخلوقا مسكيناً يتألم ويتخبط فى دياجير الشك ويتضور بين مخالب الألم .

لا يلبث أن يعود نينوس . فماذا عسانى أن أفعل ؟ وماذا عسانى أن أقول له ؟

وبعد أن درست الموقف من جميع نواحيه وفكرت فيه ملياً وطويلا . رأيت أننى جرحت فى صميم فؤادى وأوذيت فى عزة نفسى وأنانيتى.فثارت ثائرتى على نينوس لاقدامه على خيانتى والمين بى بمثل هذه الخسة والدناءة ولم أعد أصغى لغير حفيظتى ولبيت نداء الحقد الذى كان يعمى بصيرتى ويقتم نفسى. وآليت أن أنتقم انتقاماً رهيباً مريعاً . وكنت أردد لنفسى : « إن الكائن ، أياً كان ، الذى يجسر على مس سميراميس بمكروه ، يحكم على نفسه بنفسه سلفاً » .

وأبيت حتى التفكير فى النصيحة الحكيمة التى كان

نيرتيكس يسديها إلى لو انه كان بجانبى . واأســـفاه ! تمر بالانسان فى هذه الحياة أوقات هى حقاً من إيحاء الوسواس الخناس . وإنه الآن ينتقم منى للسعادة التى كنت أرتع فيها إلى الآن .

ولم أشعر ، مع ما كنت عليـه من الأضطراب ، أن يمامى لم يعد يحلق فوق جبينى وأنه نفر مذعوراً ولجأ إلى ركن بعيد فى الحجرة . وكت سان فهدتى . التى كانت بطبيعتها هادئة طيعة . كانت تقفز حولى فاغرة الفم لامعة العينين كما لو كانت تحاول أن تدرأ عنى شراً خفياً مستطاراً وانحنيت أنظر إلى الخارج فألفيت السماء تتـــلألأ بالكواكب والنجوم إلا أن نجمى تاجليت كان محتجباً وكأن ضياءه قد قل وضعف .

لقد نفذ الأمر . فلن أتحول عن عزمى أو أتزعزع عن تنفيذ قرارى. ولم أتردد أمام الجريمة لاشباع حقدى وانتقامى .

وتقدمت كأنى تمثال الألم وقد تجسم . وسرت

كالآلة رابطة الجأش شاخصة البصر وانزويت بداخل معملى .

كنت ضليعة فى العلوم الخفية . واقفة على فضائل الأعشاب السامة فأسرعت فى تركيب سم بطىء سوف يقود الملك الى حتفه بغير ما هوادة ولا شفقة .

ولأول مرة فى حياتى عرفت لذة الشر وكانت نفسى تشعر بظمأ شديد إلى الانتقام فكنت كالوحش الكاثر الثائر يرود الأدغال فى طلب فريسته .

الرؤيا الثانية والثلاثون

ونجحت خطتي المشئومة.

وأصيب الملك بمرض بطيء. فكان مصباح حياته ينطفيء رويداً رويداً. وزالت من صدري كل عاطفة للشفقة والرحمة. فكنت أشاهد احتضاره وأنا واثقة من أنني أتيت عملا صالحاً عادلا.

وخنقت في صدري غريزة الشفقة. ولو قدر أحياناً أن تتمثل صورة نيرتيكس في مخيلتي عاذلة مؤنبة فانني

كنت أنبذها عني بغير ما تردد أو إبطاء، فقد كنت أخشى أن يؤثر على فكرى بحكمته ولو كان نائياً عنى .

ومع ذلك . لشــــد ما أسفت على هذا الصديق الغائب ! . . .

وكان نينوس ينطوىء يوماً إثر يوم . وظل على ما كان عليه صبوراً وديعاً . فكان يتألم من قلة ترددى عليه . وهو مع ذلك لا يعلم السبب .

وكانت نيمور قد اختفت منـذ ذلك اليوم المشئوم . وذهبت جميع أبحاثى عنها سدى : وكان يخيل أن الملك غير آسف عليها لأنه لم يشر إليها أو يلمح لها مطلقاً . وقد أردت يوما أن أشبع ضغينتى برؤية اضطرابه وأبلغته كذباً أن الأمة الصغيرة قد وجدت وأنها ستمثل بين يديه. فلم يظهر عليه أى انفعال . ولم أقرأ على وجهه إلا الأهمال التام . وكانت عيناه الجاحظتان فى وجهه الهزيل تتبعانى بنظراتهما وترقبان حركاتى بحنو . وكان يخيل أنه قد استبسل لحظة فكان يقول لى بعطف وحنان .

— لقد قضيت ستين عاما بين ذراعي المجد وعشرين عاما بين ذراعيك أتقلب على فراش السعادة والهناء . فأي رجل على وجه البسيطة كان يحلم بمثل هذا الحظ ؟

ثم يستطرد :

— أي يمامتي الرقيقة . إنك تجهدين نفسك كثيراً . انت دائبة العمل حتى لا تستطيعين أن تهبيني بضعة لحظات. إنني أشاهد أمارات القلق على محياك . رحماك . اربأي بنفسك وحياتك فى سبيل سروري ومجد أشور .

وازداد ضعفه وأصبح يجـــد مشقة فى الـكلام . فـكانت ساعته الأخيرة تقترب بسرعة . وكنت فى أشد حالات الاضطراب لأنني ما كدت أدرك اللحظة الرهيبة للاستمتاع بانتقامى حتى شعرت بضميرى يؤنبنى بعنف وقسوة . ولما كنت قد فقدت إيمانى، لأننى نبذت عن قلبى العون الالهى ، فقد شعرت بأننى أصبحت وحدى .

وكان نينوس يقدم لى الأدلة على حبه العظيم حتى آخر لحظة من حياته .

وكنت واقفة بجوار مضجعه جامدة بلا حراك . أمثل الألم والحزن. كنت أشعر بأن الموت يحوم حوله فلم أستطع أن أفارقه . وفجأة ظهر نيرتيكس فى المخدع الملكى بدون استئذان كأنه نذير العدالة والانتقام .

وكانت لحيته قداشتعلت بالشيب ونحل جسمه وهذل وفى عينيه البراقتين الممتلئتين باللانهائى المجهول ، بريق الألم والاستنكار . وكان التعب بادياً عليه كأنه قادم من مكان ناء يطوى الفضاء بسرعة عساه أن يصل فى الوقت المناسب . وكان يتكىء على عصاة طويلة كما لو كان يخشى أن يهوى على الأرض . وكان يخيل أن صوته الأجوف الأجش خارج من أعماق القبر .

— أسرعى أيتها المرأة الجاحدة لتكفرى عن جريمتك . لقد كنت ألعوبة خدعة رهيبة سافلة . فسلى نينوس الذى لم يكذبك أبداً إذا كان قد خان عهدك .

فاعتدل نينوس ببطء وعناء وكانت هيئته المخيفة وملامح وجهه النحيل الشاحب مؤلمة . واسترد قليلا من قوته

تحت تأثير السائل الجذاب المنبعث من نظرات نيرتيكس وتمتم فى حشرجة سامية :

— إننى أشهد الله : الله الواحد الجبار الذى علمتينى احترامه، يايماتى الوادعة الرقيقة ، على أننى لم أحب سواك أبداً . ولم أخن عهدك يوماً ! هل يمكن أن أكذب فى آخر لحظة من حياتى ؟

فصحت بصوت مختنق :

— إذن ! تحت أى تأثير كنت ؟ وأية يد خفية كانت تلعب بى ما مادمت قد رأيت نينوس بعينى رأسى بين ذراعى نيمور ؟

وأتى نيرتيكس باشارة فدخل المخدع رجل .

يا الله العادل ! لقد كان هذا الرجل شبيهاً بنينوس إلى حد الالتباس والانخداع به !

فقال المجوسى :

— هـذا الرجل قد اشتراه نيربال فهو صنيعة ذلك الـكاهن الغادر الذى غمرتيه بنعمائك وأغدقت عليه جزيل

عطاياك . إن هذا الرجل ، كما ترين ، يشبه الملك إلى حد بعيد مدهش - فهو الذى كان يضم نيمور بين ذراعيه عند الكهف فى ذلك اليوم الذى قادك إليه مافروداك!

فشعرت بالجنون ينساب إلى رأسى . وأخذت أنتزع شعورى من شدة اليأس . وجثوت على الأرض وأنا أنتحب وأبلل بعبراتى يدى الملك الهزيلتين .

واستطرد المجوسى بغير ما شفقة ولا رحمة :

ـــ لقد كان مافروداك صادقاً مخلصاً عند ما أسند إليه نيربال الدور الذى طلب منه أن يقوم به ضمن خطته الرهيبة . وحمله على إغرائك ، وأقنعه بأن يأسك وحقدك سيلقيان بك بين ذراعى الضابط . إن الرجال سريعو التسليم والانقياد إذا كانت رغباتهم فى كفة القدر . وكان نيربال قد سئم قوتك وسلطانك . وفكر فى أن الحب إذا ما استيقظ فى قلبك ألان عودك وخفف من غلوائك . وكان مافروداك مقتنعاً مثلك بأن الملك هو الذى يضم نيمور ويعانقها . أنت ترين أن المجرم الوحيد

الجرم العظيم . هو نيربال وإنه يجب أن يموت .

فانتصبت واقفة وأخذت ركبتى نيرتيكس بين ذراعى وجعلت أتوسل إليه أن ينقذ زوجى .

فأجاب بحزن عميق :

ـ لقد فات الأوان ، ودقت الساعة الرهيبة . لقد استحق نينوس الهناء بحنانه وسلامة نيته . أما أنت ، أيتها الملكة ، أنت ياملكة الكبر والانانية،فانك تستحقين حياة التكفير . ليست الغيرة هى التى دفعتك إلى هذا الجرم ، مادمت تجهلين عاطفة الحب،وقلبك ظل مغلقاً لحنانه وسموه. ان عزة نفسك بل أنانيتك هى التى دفعتك اليه . إننى لا أستطيع ـ بالرغم من علمى الواسع ـ أن أغير فيما خطته لك يد الدهر فى كتاب القدر . وهذا القدر كفيل بأن يعلمك اليوم الوداعة والخضوع .

وتكلم ملك أشور لأول مرة.. فأخذت أنتحب بحرقة وأصغى بيأس ممزوج بالخجل والعار إلى أقواله والتقط كلماته الأخيرة كلمة كلمة :

ـــأى سميراميس مجدحياتى! أى يمامتى الرقيقة الوادعة. لا تبكى . إن دموعك ، وهى الأولى التى أراك تذرفينها ، تؤلمنى وتحمل الحزن إلى أعماق نفسى . لقد وقفت على أبواب حياة جديدة فلا تكدرى بحزنك لحظاتى الأخيرة. إنى أريد أن أحتفظ بذكرى حسنة عنك وعن حياتى التى ازدهرت بقربك . فاذا كنت قد عاملتيننى بغيرما شفقة، فما ذلك إلا لأنك كنت تضعيننى فى أرفع مكانة فى قلبك بحيث كان لا يجب علىّ أن أتحول عن أنظارك . فخفِّفى من لوعتك، فأنا أصفح عنك، وأباركك . علىّ بولدى نينياس

ووضع يده على رأس ابننا وحرك شفتيه. ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة وانطفأ نوره بهدوء وسلام .

وكان المخدع قد امتلأ بكبار رجال البلاط فجثوا جميعاً وهم يبكون ملكهم العظيم الراحل .

وارتفع صوتى بجانبه قوياً كما لو كان خارجاً من بوق نحاسى وتكلمت متحمسة ثائرة :

ـــ ياعظماء أشور من نواب الشعب، اصغوا إلىّ

وانقلوا إليه ما أقول . أننى أعلنكم هنا بأننى سأفارق هذه الأرض فلن أستطيع أن أعيش بعد زوجى الكريم . ولكن ، قبل أن أقف بين يدي الديان الأعظم، وقبل أن أجتمع بعزيزى نينوس إلى الأبد ، يجب أن يعلم كل من فى هذا المكان الخطأ الفاحش الذى لطخ يدى بدم الجريمة. انظروا إلى هذا الرجل الذى يشبه الملك تمام الشبه . لقد ظننته نينوس . ولقد رأيته يحتضن امرأة وحينئذ خيل إلى أننى قد أهنت . فانتقمت !

وهنا اختنق صوتى فى زفرة فلم أستطع أن أستمر فى حديثى .

وفى تلك اللحظة دخل مافروداك إلى الحجرة كالسهم وهو قابض على نيربال ونيمور فدفعهما أمامه وصاح :

— العفو . أيتها الملكة . العفو .

وعلى أثر هذه الكلمات طعن نفسه بخنجر يحمله فاخترق قلبه وسقط تحت قدمى وأسلم الروح . وقبض كثيرون من الأشوريين على نيربال وأخذوا يصيحون:

— فليمت الخائن .

وكانت نيمور تنتحب إلى جانب النعش الملكى .

وسأل نيرتيكس برصانة ووقار :

— وماذا عسى أن يكون حظ هذه المرأة ؟

فأجبته بلا تردد :

— ستعيش للذكرى والعذاب !

وبالرغم من توسلات المجوسى وتعاويذه السحرية ليحول بينى وبين عزمى على الانتحار ويبقينى على قيد الحياة فأنه لم يفلح لأننى لم أستطع أن أحتمل العار الذى أحاق بى وأذلنى .

وأثقل على ضميرى وأخذ يؤنبنى فعزمت على مغادرة هذه الأرض بين ذكريات حياتى وعظمة مجدى السالف وكذلك بين ذكريات سقوطى وعارى الحالى .

— إننى أحتكم إليك أيتها الالهة دركيتو . فيا أمى العظيمة السامية نادينى إليك ! أنقذينى ! خذينى حيث أنت !

فهوى المجوسى على الأرض كما تهوى السنديانة المصعوقة . وتصاعدت من شفتيه دعوة حارة إلى الواحد الجبار .

وكانت فهدتى كتسان تموء وتتألم .

وتحرك يمامى وحلق فى الفضاء بعد أن ظل إلى تلك اللحظة جامداً حولى ثم أحاط بى وجعل لى من أجنحته درعا مذيلا حجبنى عن الأنظار .

وعند ما خف حفيف الأجنحة وهدأت الزوبعة ، كان جسمى قد اختفى لأنه ذاب كما تذوب السحب . وطارت روحى نحو السماء على جناح يمامتى الوفية بعد أن اتخذت شكل شعلة من النور .

وهكذا اختفت من كانت تدعى سميراميس العظيمة من عالم الوجود .

للمعرب

الاستمتاع	قصة
نداء القلب	قصة
سميراميس	قصة

ملتزمة التوزيع

مكتبة الأنجلو المصرية

٣٣ شارع قصر النيل

تليفون ٥٠٣٣٧

تحت الطبع للمعرب

بدار النشر الحديث
٧ شارع فؤاد الأول بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٥٥

المريد

(التلميذ)
درة الأدب الفرنسى للكاتب الشهير بول بورجيه

أكاذيب

عن بول بورجيه

مسرحيات

شهوة الشرف عن لويجى بيراندلو

المعبود الجديد عن فرانسوادى كوريل

فى يوم الاحد ٦ ديسمبر ١٩٣٦م
تم طبع قصة « سميراميس »
بدار النشر الحديث
مطابع احمد الصاوى محمد
٧ شارع فؤاد الأول «٥٥٤٥٥»
القاهرة